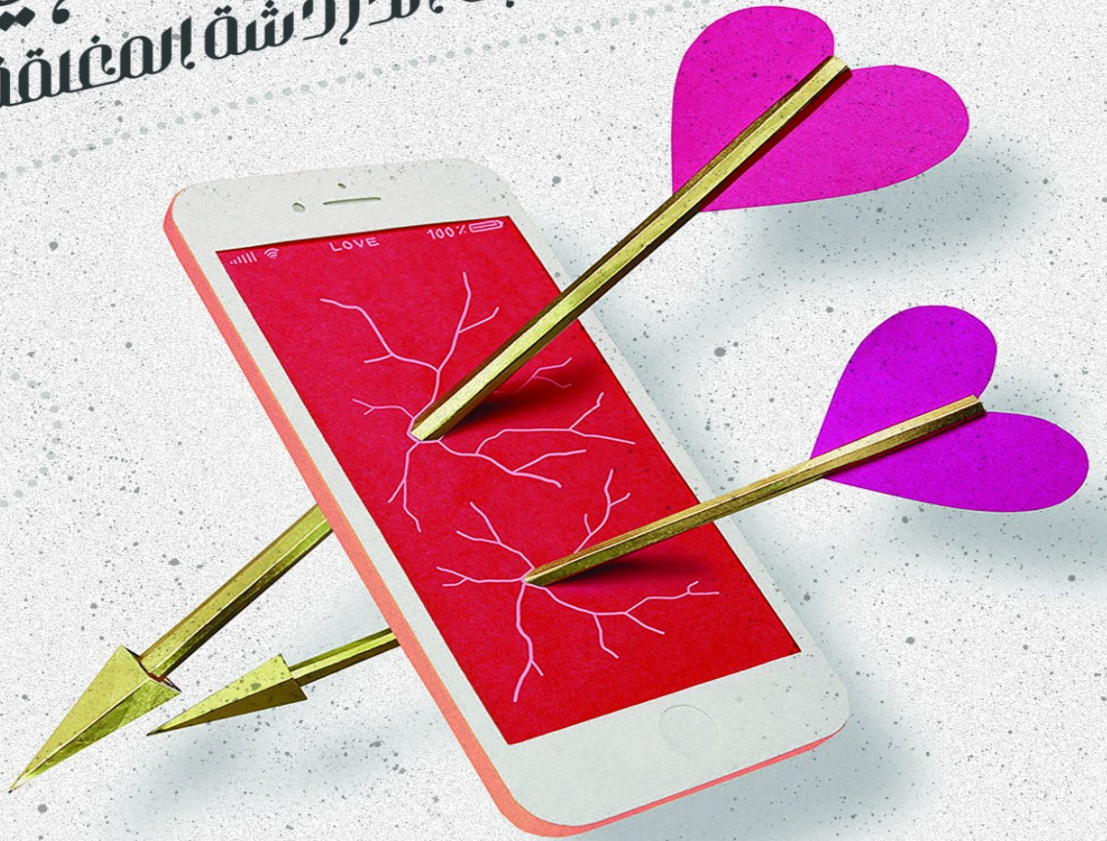


tinder

فسي بيت الوجدوة ثريا
فكيات من وافل غير فالر وشة العفمة



متتالية قومية
سارة سين الدين



tinder

في بيت الجدة ثريا
حكايات من داخل غرف الدردشة المغلقة
سارة سيف الدين

سارة سيف الدين.

Tinder في بيت الجدة ثريا: مجموعة قصصية / سارة سيف الدين .

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.

160 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-113-0

1- القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان : 813.01

رقم الإيداع : 28071 / 2021

الطبعة الأولى : يناير 2022.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بآية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

tinder

في بيت الجدة ثريا
حكايات من داخل غرف الدردشة المغلقة
سارة سيف الدين



إهداء

**إلى أبي وأمي.. وابنتي خديجة
مثلث السند والمحبة.. والونس.**

كان واحدًا من الصباحات الشتوية التي لا تنساها، في أواخر يناير من العام ٢٠٠٣، عندما وقفت تُرتب غرفتها قبل استعدادها لدرس الفيزياء في هذا اليوم، كانت قد اختارت رغماً عن الكل القسم العلمي، لأنّها كانت تكره التاريخ ودراسته. أمسكت بكتبها تعيدها إلى مكانها على منضدة في زاوية الغرفة.

ندى.. في الصف الثالث الثانوي الآن.. تحلم بدخول كلية فنون جميلة، وتعلق رسوماتها التي تنجزها في حصص الرسم على جدران غرفتها، بشكل تناسقي جميل يزيد فخراً بنفسها، وتمسكاً أكبر بحلمها، فهي مؤمنة بأنّها لا تصلح إلا لصحبة بها فرشاة وألوان وأقلام رصاص، بدرجاتها B، HP، H، ٢B، و٦B فألوان الفحم ورسوماتها الأبيض والأسود تبقى دائماً بخير، فهي ترى أنّها صحبة تؤنس وحدتها فلا تمل منها أبداً.

وقعت كراستها التي تحل بها مسائلها الفيزيائية المعقدة، وكأفلام الأبيض والأسود وقعت من الكراسية ورقة مكتوب فيها بخط أنيق كلمتان لا ثالث لهما، إلى جانب علامة استفهام «أحبك، وأنتِ؟».

تسارعت ضربات قلبها بشكل لم تعهده في نفسها من قبل، لم تذهب بها حيرتها لأي مكان بعيد.. سوى عند خالد زميلها في الدرس المنتظر.. تمالكت نفسها وهي تضم الجواب إلى صدرها من خضتها.. حاولت أن تأخذ نفسها بانتظام في محاولة لاستيعاب ما قرأت، هل أخيراً شعر بها خالد؟! لم تفكر ندى في أي شيء سوى أنّه لا أحد غيره بالتأكيد كتب لها هذا، فلا يوجد غيره وسط أربع بنات أخريات.

كانت المرة الأولى التي تتحرك فيها مشاعر ندى، ترى نفسها متوسطة الجمال في عين نفسها، وعين زميلاتها أيضاً، زميلاتها اللاتي كثيراً ما ينتقدن تقليديتها في لبسها وتسريحتها المعتادة، تسريحة «ذيل الحصان»، التي لم تغيرها يوماً واحداً طوال ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية، إذ لم تكن لتفعل كبقية البنات في وضع بعض لمسات الماكياج تحت المقاعد، أو في الحمامات، ولا حتى بعد نهاية اليوم الدراسي. إذ كانت تكتفي باحتضان «أكلاسيورها» المحبب المرسوم عليه مشهد من فيلمها المفضل «تايتنك» الشهير لليوناردو وكيت وينسليت، وتبتسم لمعاكسات ساذجة مثل «يا رتني كنت مكانه»، فتمد خطواتها مسرعة خجلة لمنزلها بالمنيل.

ظلت يومها تقرأ الجواب مرات ومرات، تبتسم ابتسامة بلهاء وتحلم باللحظة التي يأتيها خالد فيها عند باب مدرستها، ويمشي ممسكا بيدها هامسًا لها بحبه على مرأى من كل زميلاتها، اللاتي ملت سخريتهن منها أنها ليست ككل البنات، وأنه لن ينظر لها شاب أبدًا.

مرت الساعات ببطءٍ شديد، ووصلت زميلاتها في الدرس ولحق بهن خالد. وقبل أن يصل المدرس، تجرأت على غير عاداتها، ووضعت ورقة تحت كتبه التي وضعها على المنضدة لتوه، كتبت فيها، «جداً وأكثر». أخذ خالد الورقة ولم يعلق، فزادها ذلك ارتباكًا وحرَجًا، فهو لم ينطق كلمة واحدة ولم ينظر لها ولو لمرةٍ حتى.

انتهى الدرس، ولم تستوعب منه كلمة واحدة. على الباب، وقفت تودع زميلاتها بعد أن رحل خالد مُسرِّعًا في صحبة المدرس. وقبل أن تغلق الباب، التفتت إحداهن ووقفت أمامها مباشرة في حضرة البقية، وهمت تعطيلها جوابها بضحكة خبيثة وهي تقول:

- «خالد لي يا ندى وكسبت الرهان أن لعابك سيسيل لمجرد الفكرة وستردين على الرسالة التي اتفقت معه على كتابتها».

وسط ضحكاتٍ مكتومةٍ ومتقطعة، لم تشعر ندى بنفسها إلا وهي تُغلق الباب بعصبية شديدة في وجوههن، وتجري إلى حجرتها مفزوعة مما سمعته. ألقت بنفسها على السرير وتكورت على هيئة حرف (د) وهي تحتضن نفسها وتبكي بحرقهٍ شديدةٍ، لدرجة سمعتها جدتها ثريا، التي هرولت إليها لتضمها بشدة وهي تقول:

- سمعتن يا حبيتي، لا يهملك منهن.. فلم تمر التربية من باب أهاليهن.. ولكن إياكٍ والحب الآن يا ندى.. إياكٍ.

تعيش ندى مع ثريا، جدتها لأمها، لا تذكر عن أبيها وأمها سوى أنها كانت تمسك بعروستها الجديدة عندما سمعت خبر رحيلهما وهي في سن السادسة من عمرها، تركاها بعد صلاه العيد مع «ثريا» لزيارة الطبيب لأمر عاجل، ولم يعودا إلى الآن. لقيتا حتفهما في حادث على الطريق قبل أن يصلا لمكان الطبيب، عرفت الجدة الخبر، فصرخت، وجرت تحضنها بقوة وتتكلم بنحيب لم تفهمه ندى في عمرها آنذاك، كانت تقول:

- أنتِ أهلي من بعدهم يا ندى.. أنا كل ناسك يا بنتي.

كبرت ولم تعرف أهلاً سوى الجدة، ضيفة في إقامة دائمة، ولم تكن تعرف عن الرحيل شيئاً سوى أنه الفراق الذي لا نرى فيه من نحب مرة أخرى، وأن البيت يصير عدد أفرادهِ أقل، وبات صوت جدتها وصوت الونس الخارج من ماكينتها القديمة «سنجر»، هما كل معاني الدفء لها.

لم يمهلها القدر أياماً قليلة حتى يخبرها والداها أنها كانت بصدد أن تصبح شقيقة كبرى لأخٍ أو أختٍ، رحلا حتى قبل أن يخبرها كم كانا يحبانها، ولم يخبرها كيف ستعتاد الحياة دونهما، هي وعروستها وجدتها فقط.

كانت ثريا تشتري لها كل عيد عروسة جديدة، لتزيد أفراد عائلتها الخيالية، وضعت الجدة كل بذور الحب والحنان في ندى، حتى صارت لا تعرف معنى للحب إلا حروف جدتها «ثُرياً».. وكانت تُرية فعلاً بكل مشاعر الحب غير المشروط، أم فقدت ابنتها، فضاعفت الحب في نسلها.

بقدر ما أوتيت الجدة من قوة وحب، علّمت ندى، وأنفقت عليها من معاش بسيط، وربتها تربية محافظة رزينة، «تربية عساكر»، كتلك التي أحببناها من سناء جميل في (اضحك الصورة تطلع حلوة).. لكنها أيضاً علمتها بعد انكسارها من موقف الرسالة والمدعو خالد، رغم عاديته في تلك المرحلة من عمرها، أن آخر أنواع الحب وأقلهم احتياجاً هو حب الرجل. قالت لها حينها:

- أجلي دائما بحثك عنه يا ابنتي، واستعيني عنه بحب الحياة، إن فعلت فستجلبني السكينة لقلبك، وتباعدي بينه وبين انكساراته.

كانت تتفنن الجدة في قص أتعس حكايا الحب في العائلة والجيران لتخيفها، وتتجنب الحكى عن كيف تزوج والداها عن قصة حب أيضاً.

اجتازت ندى المرحلة الثانوية بمجموع بسيط، لم يُمكنها من بلوغ حلمها الوردى في الالتحاق بفنون جميلة.. لكن جدتها طمأنتها أن اختيارات الله وخططه دائماً الأجل مهما تميننا.. فالتحقت بأداب عين شمس، قسم الوثائق والمكتبات.

كانت دوماً الفتاة المتفوقة على نفسها، التي لم تخيب ظن جدتها أغلب مراحلها الدراسية، ولم تفعل كذلك في الجامعة، حتى أنها لم تفلت مشاعرها ولا مرة، ولا حينما جاءها زميل يجلس بجوارها في أحد «السكاشن»، يسألها باهتمامٍ عمّا إذا كانت تكتب شيئاً لهذه المحاضرة..

بسرعة البرق تذكرت مشهد جواب الفيزياء في الثانوية العامة.. وغادرت المحاضرة كلها، ولم يكرر هو المحاولة أبدًا.

كبرت ندى حسب «شَرِّبَة» جدتها التي تقول أن في الحياة تفاصيل كثيرة أهم يمكن التعلُّق بها دون الرجال، وأن القصة المنتظرة ستأتي لا محالة على مهل دون أي التفاتٍ منها أو مجهود، ولم تكن تدرك أنها وهي «على مهل» وصلت إلى منتصف الثلاثينيات في انتظار مبهم لشيءٍ لا يأتي، ولا تعرف عنه حرفًا. إلى جانب تعسفاتٍ غريبةٍ وغير مبررةٍ في رفض الجدة لأي محاولات جادة للزواج من فرص تقليدية قدمها الجيران والأقارب المحيطون، فقبلت بنفسها شخصية هادئة، حاملة، وانطوائية تميل للعزلة، تصاحب كثيرًا من الكتب، وقليلًا من الناس.

ومنذ تخرجها والتحاقها بمكتبة الجامعة كهواية للهروب والاختباء من صخب الحياة أولًا، ثم مكان مَنحه لها القدر للتعين ثانيًا، قضت سنوات روتينية مملة، لا صاحب فيها إلا الجدة ثريا وصديقتان تعرفت إليهما في المكتبة وثالثة من أيام الدراسة بالجامعة هي الأقرب.. وصحبة أجمل من عشرات الكتب، عالم تحب السكون إليه.

في عيد ميلادها الخامس والثلاثين قررت ندى ألا تكمل بقية العقد وحدها، وأنها لم تعد تحتاج إلى ميناء سلام كما كانت.. في اليوم نفسه كانت تشاهد أحد الأفلام الأجنبية مستخدمين فكرة برامج المواعدة وكيف أنها تفتح فرصًا وعوالم أخرى لقصص الحب الممكنة، ذكروا فيه اسم برنامج «تيندر».

لم تنم تلك الليلة، شغلها الموضوع لدرجة جعلها تبحث عنه في الويب بكثير من الفضول، كان الصادم لشخصيتها المنعزلة أنها وجدت عشرات البرامج الأخرى تقدم الفكرة نفسها. بل ويتزوجون عليها أيضًا.

فسألت صديقتها المقربة منار عن التطبيق، وهي التي لا تترك الموبايل من يدها، لتفاجئها أنها بالفعل جربته للتسلية. لكن غير المتوقع، أن منار شجعتها على التجربة، من باب التجديد في حياتها، لتنفض التراب عن روتين أيامها.

ارتبكت ندى قليلًا من حماس منار، لكنها أحبت الفكرة التي لا تشبهها بتاتًا. ولربما لذلك وافقت أن تجرب ما لا يشبهها، ومع كل ذلك حذرتها منار من الانسياق وراء أي شخص ستقابله هناك، فهي تعلم مُسبقًا أنه عالمٌ غير آمنٍ على الإطلاق.

أحبت ندى أن تأخذ صبغة العفن على ما ستفعل، فهي تكره الأسرار وكل ما يدور باسمها، فكثيرًا ما تتركنا بعض القرارات المتهورة التي لا نثق في عواقبها ونود لو حملناها على أكتاف غيرنا بأن نخبرهم ببعض تفاصيلها في حالة الفشل، من باب «ما أنا كنت حكيالك!»

كانت الحياة هادئة تمامًا داخل جدران بيت ثريا، هادئة كشخصيتهما معًا، غرفتان وصالة في شقة صغيرة بحي المنيل الهادئ، في زاوية بالصالة، تضع الجدة ماكينة الخياطة ماركه «سنجر»، على طاولة خشبية لها أربع عجلات صغيرة، تجرها أمام الكنبه الكبيره وقتما رغبت في استعمالها، وتعيدها لمكانها بعد تغطيتها بمفرش من تطريزها أيضًا، تلك الكنبه التي اشتراها الجد عبد الله في أول زواجهما وتعتز بها إلى الآن، تغير قماشها، ولا تفرط فيها، «فيها ريحته». دائما ما تخبر ندى بذلك، وضعتها بالقرب من بلكونه بحري واسعه «هواها يرد الروح» يغطهما عليها الجيران، ويأتي بعضهم يجلسون معها فيها لشرب الشاي بالنعناع الذي تزرعه فيها، مستمتعين معها بنسبات الهواء الرطبه المختلط برائحة زرعها.

ومع الهواء، فالشمس تحب بيت ثريا أيضًا، تزوره ساعات خاطفة في ظهر اليوم، تُظهر لها البيت وتزيده دفنًا على دفء محبتها.

ذهبت ندى لجدها يوم إجازتها متجهمة تتظاهر بأنها ستساعدها في تطبيق الغسيل الموجود على كنبه الصاله.. وتخبرها بصوت مرتعش:

- «تيتا، أنا هاعمل حاجة ومش عارفة إيه نتيجتها أوي، وعايزة أعرفها لك، بصراحة، أنا، قررت أدور على حد أحبه ويحبني، مش عارفة هاعمل ده إزاي.. بس في برنامج عرفته من النت، احتمال يديني الفرصة دي، أقابل ناس وأكلمهم يمكن ألاقي فيه القصة اللي بتمناهها.. وكل اللي أوعدك بيه إني أحكيك كل حاجة أول بأول بكل صراحة.. ماشي يا تيتا؟».

لم تفهم الجدة ولا كلمة مما قالته حفيدتها، إلا أن الرد كان مجحفًا وافيًا كافيًا:

- «هاقوم أحضر الغدا، عايزة بسلة ورز؟ ولا فاصوليا أحسن؟».

ضحكت واهمةً نفسها بالقبول، ودخلت حجرتها، ودون تردد حملت البرنامج وهي لا تعرف عنه سوى بضعة تفاصيل حصلت عليها من جوجل، وتقارير متفرقة عن سيرته في مصر والدول العربية الأخرى التي سبقتنا إليه منذ ٦ سنواتٍ وأكثر، هي عمر هذا التطبيق. وقليل من حكاوي منار عنه.

ثم فجأة، أخذت تصيح على جدتها:
- «ستو، خليها بسلة بقى».

* * *

- كريم

(لا ننسى إلا حين ننسى أننا نريد ذلك).

ليس كل نسيان نعمة.. فنحن لا ننسى من رحلوا عنا بإرادتنا.. لربما لو كنا في أفلام الخيال العلمي، لكان الأمر سهلاً، قد يكون بضغطة زر، كإحدى خدمات الذكاء الاصطناعي التي جعلوا إحدى مهامها النسيان، كما حدث في فيلم جيم كيري «Internal sunshine of the spotless mind» مع كيت وينسلت، عندما قرر كل منهما نسيان الآخر بعملية علمية مستحدثة.. حتى أنهما قررا البدء من جديد بمحض إرادتهما بعد محو كل شيء تماماً.. لكن الواقع لا يتيح لنا ذلك. فالأماكن هنا تتفنن في حفر ذكرياتك بقوة، والزمن يتحالف معها ضدك في إجبار الآخرين على تذكيرك بها في مواقف غريبة. بعدما ظننت أنها بدأت في التلاشي. الحقيقة الوحيدة نحن ننسى عندما ننسى أننا نريد ذلك!

كانت تتحدث مع صديقتها منار في التليفون عن تلك الفكرة، عندما أخذت تشكي كيف أنها ما زالت متعلقة بتتبع حياة خطيبها القديم وأنها لم تتجاوزته بعد، حتى بعدما صارت تعمل موظفة بعقد في إحدى شركات الاتصالات، لم يلها ذلك أيضاً..

أنهت ندى المكالمة وعيناها واقعتان على لوجو البرنامج الموجود على هاتفها أكثر من يومين لم تجرؤ على فتحه.. فهي الفتاة المترددة في كل شيء، فما بال وجودها في هذا المكان.. تفتح البرنامج وضربات قلبها تعلو كأنها تسمع لها حسيبًا، تجلس مربعة القدمين في تركيز المُقبل على قرار مصيري، تأخذ نفسًا عميقًا، وتنشئ لنفسها ملفًا شخصيًا حسب المطلوب منها في خطوات البدء.. ولم تضع صورة لها كما حذرتها منار، لكنها اختارت وضع صور تعبيرية عن حبها للرسم والحدائق والقراءة أيضًا.

أفصحت عن سنها ببساطة، فكتبت: «ندى ٣٥».

ثم شرعت تتصفح صور الرجال الموجودة من باب التعرف على فكرة البرنامج.. أغلب صورهم تلمع بشدة، كأنها بوسترات لنجوم مشاهير. قليل من وضع له صورة وهو في مكتب، أو صورة عادية في شارع مثلاً.. صور بعضهم في صالات الجيم بدون ملابس تغطي صدورهم كأنهم يتفاخرون

بعضلاتهم ولياقتهم، وماركات ملابسهم الرياضية.. وآخرون على شواطئ يتفاخرون بأجسادهم أيضًا.. وبضعة رجال وضعوا صوراً مريبة لأحذية نسائية ذات كعوب عالية، لم تفهم منها شيئاً ولا حتى حين كتب أحدهم «أبحث عن ملكة أكون خادمها».. بخلاف عدد لا بأس به من رجال أحبوا وضع صور لهم وهم يحضنون كأساً معروف ما فيها.. وحسناوات يلتفن حولهم ليعلنوا بثقة عن المجتمع الذي يعيشون فيه، ومع الصور كانت الجمل المكتوبة في صفحاتهم تعلي من فضولها أكثر، منهم من أعلن بكل وضوح عن كونه متزوجاً وأنه جاء فقط «للعط» وآخر كتب أنه يبحث عن علاقة جنسية بكل وضوح.. حتى الإفصاح عن المثلية كان مباحاً بالشكل المرعب لها.. وبين كل هؤلاء كانت تقرأ أيضًا عن آخرين يبحثون عن علاقات عاطفية لطيفة، تصلح لأن تكون قصة ارتباط خارج البرنامج. كانت تطيل تصفح صورهم لتعرف كيف يعيش هؤلاء، وعمن تبحث وسطهم، كان الوضع مريباً ولكنه مثير لها أيضًا..

في الليلة الأولى لها، على تيندر، وبين عشرات الصور.. كان عليها أن تجرب خاصية الـ swipe right، لا بد أن هناك من سئجج بصورته، ويفعل هو أيضًا..

تلمح صورته وهي تقلب في الصور الأكثر من حبات الرز الذي «تنقي» منه الحصى مع الجدة.. حسب مربعها السكني وبموجب شرط فتح «GPS» من هاتفها، يجلب لها البرنامج كل القرييين لها في السكن بوحدة الكيلو متر..

«كريم» حسب الاسم الذي لم يكتب سواه، ظهر مرتدياً «كابتشوه» يجلس بظهره على حافة مكان مرتفع كأنه المقطم.. بدا لها أنه أراد التخفي على غير عادة المارين هنا، لم يكتب في الـ «bio» الخاص به ما يحقق لندى تسليتها ويخبرها شيئاً عنه، فكان مناسباً لتكون بداية التجربة معه، وربما تعمد ذلك ولم يرغب في أن تحدثه أي عابرة والسلام.. ولمحت الكلمة السحرية «it's matching» الجملة الأكثر لطفاً التي ستحبها بعد ذلك.. إنهما الآن متوافقان ويمكن لأحدهما أن يبدأ الحديث.

بصباح الخير وسلامات فاترة بدأ كريم كلامه في اللحظة نفسها من ظهور الكلمة السحرية، كانت ندى تكمل هذا الصباح رواية لخولة حمدي «أن تبقى»، تقف عند جملة فيها «تُخطئ حين تحسب أن المرء يموت مرة واحدة، تموت حين تُقتل الحياة داخلك، ينسحب الضوء من روحك تدريجياً، مثل مدينة انطفاً مولدها الكهربائي فغرقت في الظلام».

كانت مشغولة بفكرة لماذا يترك الإنسان نفسه لهذا الشعور المظلم أن يتوغل داخله، ولديه فرص أخرى للنجاة، وحيوات أخرى يستحق العيش فيها..

هي على وشك الإجابة على تساؤلها مع كريم، وكأنه جاءها خصيصا هذا التوقيت ليحببها على أسئلتها الوجودية تلك، ويخبرها دون أن تدري أنه لا شيء يحدث لنا دون رغبتنا، وأن حتى الإرادة قرار، لا نلمح طيفها إلا عندما نصبح مستعدين للتحلي بها واتباع أوامرها..

لم تضع تصورا لشكل المحادثة، لكنها تركتها تأخذ مجراها المنطقي، فهي المحادثة الأولى على كل حال.

- أهلا كريم.

- أهلا ندى، ما الذي تبحثين عنه هنا؟

- لا أعلم بعد، كنت سأطرح عليك السؤال نفسه.. عم تبحث؟

- لا شيء سوى الرغي مع أي منكن..

- فعلا؟! ألا تشعر أنه رد سخي نوعا ما.. قل حتى أنك ربما دخلت باحثا عن واحدة منا، تنسى بها أخرى على سبيل المثال.

- كيف خمنتِ هذا سريعا؟!

- في الحقيقة كنت أستخف بإجابتك ولم أقصد الجدية، التي يبدو أنها حقيقة للأسف.

- بصراحة لا أجد حلو الكلام وتذويقه، نعم جئت أنسى خطيبيتي.

- وأخبروك أن هنا المكان المناسب لذلك؟

- لا.. تركوا لي الباب مفتوحا، وأخبروني أنه فقط سيفي بالعرض مؤقتا.

- أكل ما يدفعك شخص لفعله تنفذه بهذه السهولة؟ مسكين يا كريم!

- في حالتي.. نعم مسكين جدا وعلى استعداد لفعل أي شيء لتمضي حياتي من جديد، فبعدها توقفت أرضي عن الدوران.

- ولم هذا العناء؟ انساها إن كانت تستحق النسيان، استدع كل المشاعر المؤذية التي مررت بها يومًا معها، وسيحدث ما ترغب فيه حتى ولو بعد حين..

- كانت أجمل من أن تُنسى، وأن يعوض غيابها بشرا!

- ماذا فعلت بها إذن؟

- فعلت هي بي.. لم تقاوم مرضها بالقدر الكافي الذي اتفقنا عليه معًا، فماتت.. ثمانية أشهر أعاتبها كل يوم أنها خذلتني بالرحيل، لم نحسب لتلك الخطة من الأساس..

اعتدلت في جلستها المستخفة من ثوان بكلام كريم، وشعرت بوكزة في قلبها وهي لم تحسب أيضًا لهذه الدراما من الدقائق الأولى لها هنا.. إن افترضت صدق ما يحكيه.. هل يساعد كلامها في أي شيء؟ ولم لا وهي لا تجيد في هذه الحياة أكثر من الكلام إما مع جدتها أو على الورق أحيانًا، فلم لا مع غريب ضل وجهته، فتقابلا لسبب ما هنا.. فكرت قليلا قبل أن ترد عليه:

- البقاء لله يا كريم.

ولكن لماذا تنساها وكنت تحبها؟

ألا تحب أن يدبر الله لك ذلك بطريقته؟!

النسيان سنة من سننه.

- ونعم بالله.. أحب طبعًا بلا شك، الحقيقة أصلا أنني لا أرغب في نسيانها، كل شيء كانت تفعله غير قابل للتجاوز، كل شيء حدث معها يجبرني على إبقائها خالدة، وكأنه شيء أشبه بالوشم على الجلد، لا أعرف من أين أبدأ الكلام معك وقد وجدت أخيرًا من أخبره ما أحمله وحدي، حتى وأنا أخالف بذلك أولى محاولات النسيان، فقد أخبروني أن أفضل طريق للمضي قدما، أن أعرف غيرها وأدخل في علاقات كثيرة، حتى أن صديقي حمل لي البرنامج رغما عني وتركه لي.. ووجدتني أدخل، وأنا لم أكن يومًا أجيد الحديث إلا لسواها، علمتني الكلام أو ربما أظهرت لي كثيرًا من الود أنني أجيده بلباقة، رغم تهتهاتي الصغيرة وتلعثمي أمامها وأمام الناس، فكانت لي كل الناس وكنت أنا كل جمهورها.

- دعك منهم الآن.. لا أعلم من هم أصلاً.. ماذا لو طلبت منك أن تحدثني عنها أكثر؟

- أو بذلك أنساها؟

- ألم تقل أنك لا ترغب! تحدث وكأنها هنا، تخيل مثلاً أنك تخبرها آخر أحوالك!

- ولكنني غاضب كوني أصبحت بائساً وحيداً برحيلها!

- أنت لا تفعل شيئاً سوى أنك تلوم رحيلاً لم يختره أحد منكما، لم تفكر حتى في أن تشكرها غيباً كونها جعلت منك نسخة أفضل، ولا حتى فكرت أن تكمل ما تعاهدتما عليه معاً من باب رد الجميل لقصة حب أنت بنفسك تخبرني الآن أنها كانت الأجمل على الإطلاق.. النسيان لا يأتي فجأة يا كريم، وهناك أشخاص يبقي الله ذكراهم حية في القلوب.. وتبقينا تفاصيلنا معهم أحياء، نقتات من طيف أرواحهم حولنا.. تخبرنا ذكرياتنا معهم أننا عشنا هنا يوماً سعداء بسببهم، يتلاعب بنا الحنين لا ننكر.. ولكن يشفع لنا كم كانوا رائعين.. وحدهم السيئون يضطروننا لذلك ويستحقون.

- كريم أنت هنا؟

غاب كريم عن المحادثة، برغم اندماج ندى في حديثها معه وتأثرها بشدة لحاله، لم تتوقع حدوث شيء سيئ. فقط إما سوء اتصال أو لظرف ما وسيعود..

تركت ندى التليفون وخرجت إلى جدتها وهي تجلس على ماكينتها الحبيبة تخطط للجارة إسدالاً جديداً.. جلست إلى جوارها صامتة تنظر إلى فيلم لعبد الحليم تتابعه «ثريا»، قبل أن تنطق فجأة:

- «أكانت أمي تُنسى؟».

اعتدلت الجدة في جلستها ونظرت لها في استغراب لترد سؤالاً بسؤال:

- أننسى سبب وجودنا في الحياة؟

- يا بختك بتفاصيلك الكثيرة معها يا تيتا.

- كانت سببا لحياتي فعلا، في وقت ما في هذا الحياة نحيا من أجل آخرين، وكانت هي السبب الأجل الذي عشت له، وستدركين ذلك حينما تصبحين أما تستيقظين كل يوم من أجل ابتسامة طفلك تتمنين من الله الصحة لأجلها.. أو لربما حتى من أجل إعداد ساندوتش جينة رومي يسعدها.

تطبع قُبلة على خدها وهي تقول:

- كما تفعلين معي الآن، حتى ولم أعد تلك الطفلة التي تركتها لك أُمي..

- أمك أعطتني حياة أخرى بعد حياتي معها، حينما أنجبتك لي صبْرًا وونسًا.. ماذا كنت سأفعل وحدي بعدها، كنت حتمًا سأطلب الموت في كل صلاة، وتركني الله وقتا أطول من أجلك «يا مغلباني»

- أيعني هذا أنه لا حياة بعد رحيل من أحبناهم؟!

- لا يا ابنتي.. الإيمان يبقينا أحياء بعدهم، إيماننا بأننا عشنا الأوقات الأحلى إلى جوارهم.. وأنهم يشعرون بنا أحيانًا، اليقين بأن تلك التفاصيل التي تركوها صارت قوت أيامنا لنصبر على مزيد من الفراق حتى نلتقي.. النعمة ليست في النسيان.. النعمة في الصمود مع الذكريات والابتسام لها كلما بكينا.. نعمة النسيان لمن آذونا أولى يا ندى وبلقيها الله في قلوبنا من فضله.

- ولكن يبدو أن الطيبين والأخيار يرحلون أسرع مما كنا نتخيل ونرتب. يرحلون قبل أن نخبرهم كيف كنا نحبهم أكثر مما أظهرنا.. يرحلون وهم يظنون عادية وجودهم.

- لا شيء في وجودهم يا ندى كان عاديًا أبدًا.. بل كان من شدة روعته أمرًا مسلمًا به.. عاديتهم كانت عدل الله الذي نفذ برحيلهم.. لا يأتي جدك عبد الله مثلًا على بالي، إلا وابتسمت، لم أذكر كم مرة تشاجرنا على أكلة لم تعجبه، ولا مصروف ضيعته، ولا على خبيزي للكحك كل عيد فيما يصر هو على شرائه جاهزا راحة لي.. كان يخاصمني أياما وتصالحني يده الحانية في تلك البلكونة التي نحبا أنا وأنتِ وهو يهمس في أذني «مش كفاية زعل يا ثريا».. حنيتة علي، وطيطبة يده كانت أجمل عادة لم يحرمني منها في حياته.. ورحل وهو يعلم أنه لم يكن أبدًا رجلًا عاديًا..

هيبية على كل حال يا ابنتي انشري كل ما لديك من حب قولاً وفعلاً قبل فوات الأوان، خصوصاً لمن يستحقون ذلك.. لا وقت للنكران أو المكابرة.. لا

وقت لا اعتبارهم أشخاصا عاديين.. المهم أن يكون ذلك بعيدًا عن الرجالة يا ست ندى لحين تتزوجين ونفكر في موضوع نشر المحبة وقتها.

- هاهاها.. حاضر حاضر، وأنا أحبك قولا وفعلا يا ستو وأنتِ أجمل شخص غير عادي لا أرغب في نسيانه أبدًا..

- غريبة طريقة كلامك اليوم، وما أخبار البرنامج الذي لمحت لي بتجربته منذ فترة، الحقيقة أنني لست مطمئنة للفكرة، لولا أنكِ وعدتيني بالحكي دوما.. أصار هناك شيء جدير بالحكي؟

- لا جديد مهم، لكنه عالم تفاصيله كثيرة، ربما صار ذلك محاربا جيدا لأيام الملل الفائتة، ربما أسمع وأعيش حواديت أمتع من الكتب، على الأقل سأعيشها بنفسني، صرت أنا البطلة أخيرًا يا ستو، أعدك ألا أفلت زمام الأمور، وألا أثق في أحد هناك سريعًا.. لكنني لا أخفيك سرا، ما زلت مشدودة بقوة خفية إلى سماع حواديت هؤلاء العابرين. أولهم مثلا كريم.. شخص غريب يقول أنه دخل البرنامج لأنه أراد أن ينسى فتاة أحبها بشدة، بعد صدمته بموتها فقرر أن ينساها ليبدأ من جديد، لكنني أخبرته ألا يفعل، هل أصبت الفعل يا ستو؟

تتركها الجدة دون إجابة تمصص شفيتها وهي تتكلم بصوت منخفض وهي تدخل غرفتها:

- «الله يخربيت دي شورة هاتجيب وجع الدماغ أنا عارفة».

- «سمعاكي على فكرة».

- «ماتسمعي هاخاف يعني.. ربنا يسترها والله».

- «طب خدي هاتي بوسة، ولا آجي أنا أديكي طيب؟!».

تبتسم ندى وهي تسمع عبد الحليم يغني في التلفزيون «شغلوني وشغلوا النوم عن عيني ليالي، ساعة أبكي وساعة يبكي عليا حالي».. كانت تحب لعبة أسماء الأفلام القديمة مع جدتها، فتحت جوجل لتتأكد من اسم الفيلم قبل أن تذهب إليها وهي تصيح عليها تسألها عن اسمه.. تكسب الجدة للعبة وهي تخبرها بصوتها الحنون:

- «عيب على الشعر الأبيض لو معرفتش أفلام روح القلب حُلم»، فيلم أيام وليالي طبعًا.. أتحيين أن أخبرك باسم الاغنية الآتية؟

- «تكسبي يا ستو».

تخطف ندى قبلة قبل أن تعود إلى غرفتها تحاول النوم سالمة البال هادئة وصوت عبد الحليم ما زال يشدو بالخارج.. تجد رسالة من كريم يعتذر عن اختفائه المفاجئ.. تقبلت ندى اعتذاره طالبة منه أن يكملا حديثهما في الصباح، فرغم حماسها لإكماله، لكنها لم تُفتن بعد بلعنة تغيير العادات.. لم تندها النداهة..

في الصباح وجدت رسالة منه يخبرها أنه في حاجة للحديث معها ضروري، كريم لم يطلب في المرة الأولى أن يرى صورة ندى، لم يشغله سوى كلامها الذي يبدو أنه ترك أثره الواضح عليه.

في نصف اليوم والعمل في المكتبة كالعادة هادئ.. عادا للحديث مجددًا..

- أنا هنا يا كريم..

- ندى أنا هنا أيضًا.. لماذا غيرت وجهتي؟ لم أنم منذ البارحة.. حتى أنني لم أفتح حديثًا مع غيرك منذ أن تحدثنا، لماذا جئت لتغيري ما كنت أرغب فيه؟ كنت مرتاحا جدًّا لقراري.

- ولماذا لم تتم إدًا؟ طالما كنت مرتاحا جدًّا لقرارك، ولماذا أرسلت تطلب الحديث معي مجددًا لو أن كلامي لم يكن على هواك.. العالم هنا افتراضي يا كريم.. فافرض معه أننا لم نكن هنا يومًا.. واهرب لحيث تحب أن تكون وأن تفعل.. لا تعلق مخاوفك على هواجس العابرين.

- لا يا ندى.. لم تكن مجرد هواجس منك، كنتِ كصوت الضمير فيّ، ورجبت أن أبقيه مستيقظًا أطول وقت ممكن، فطلبت أن أكمل كلامي معك، لا تذهبي أرجوك.

- دعنا نتفق أولًا.. أننا لن نكون أكثر من اثنين لا نعلم عن بعض شيئًا، لا تطلب مني صورة، ولا رقمًا ولا أن نخرج من هذه الغرفة لأي عالم أكثر واقعية.. ولن أفعل بدوري.. دعنا نتخيل أنني مجرد كلمات صوت ذاك الضمير الذي بداخلك.. فأنا في حل من أي محاولات للتقرب من شخص

يرغب في نسيان واحدة بأخرى، خصوصا وأنت أول شخص أتحدث إليه هنا..
تعذني ألا تقترب؟

- أعدك بذلك..

- جميل.. فلماذا أتعبك كلامي؟

- لأنني طالما قاومته بداخلي مرضاة لأمي، التي كثيرًا ما تخبرني بيأس كم هي حزينة على عمري!

- وما يُحزن في عمرك إن عشت على سيرة شخص أحبته؟

- يحزنها أنني لا أعيشه من الأساس، من يوم الوفاة لم تعد حياتي كما كانت، لم أعد أفعل الأشياء نفسها التي كنت أفعل سواء معها أو لنفسي، أهملت شغلي حتى فصلوني مع مجموعة تحججوا بأن حاجة العمل لم تعد تسمح بعددنا تخفيفا للنفقات..

- ماذا كنت تعمل يا كريم، نسيت أسألك؟

- خدمة عملاء في فوإدِفون UK ومترجم صحفي أحيانًا..

- يعني متمكن في الإنجليزية، هذا ممتاز..

- نعم وكنت أتعلم الألمانية أيضًا معها وتوقفت عن كل ذلك..

- توقفت! لها حق والدتك أن تحزن لحالك.. ولها حق أن تحزن خطيبتك لحياتها التي لم تترك أثرًا فيك هكذا!

- بالعكس تركت كل الأثر، ولهذا لم أستطع العيش دونها وأرغب في تجاوزها بشدة، يقتلني التفكير فيها.. أصبح عمري ٣٧ سنة وعاجز عن العيش بدونها.. أنا في منتهى الضعف!

- هل تستحق بكل ما تحكيه عنها أن تُمحي من ذاكرتك؟ لعلها كانت ترغب في أن تجعل منك إنسانا سعيدًا ما بقي من عمرك، حين تحقق ما يجعلك رجلا يليق بأمثالها.. دعك من كلامي الأشبه بكتب التنمية البشرية التي أحيانًا تلبسني كالجن، فقط حدثني عنها..

- بالعكس كلامك في صميم وقته. أحقا يجوز لي الكلام عنها؟

- وما يمنع؟ أرغب جدًّا في سماع كيف كان هذا الحب وعطاياه؟

- تصوري، لم أتحدث عنها جهرا منذ شهور، كلما ذكرت موقفا لها أمام أهلي أو أحد من أصدقائي، يسارعون في تغيير الحديث كأن هذا علاجي، ولست مريضا في الأساس يا ندى.. أنا فقط أحببتها وكنت أحب الحديث عنها.. ومنعوني قهرا! فصرت أفعل ذلك سرا أو على الورق حتى أصبحت لا أفارق غرفتي إلا نادرا..

- دعك من كل هذا.. تحدث عنها الآن، أسمعك..

- اسمها نور.. تعلمت الألمانية من أجلها ومعها، كنا ننوي السفر إلى ألمانيا معًا، أملا في العلاج أولا، ولاستكمال دراستها ثانيا، كانت تدرس الألمانية حينما التقينا في كلية الألسن، وصارت من وقتها تُدرّسه في أماكن مختلفة.. حتى أنها كانت تحلم بمنحة دراسية تستكمل فيها أحلامها، منحة قررنا معهد جوتة في شروط معينة.. كنت أشجعها جدًّا على خوض التجربة، كانت تحب الأحلام.. وكنت أعتبرها حلمي الأجل.. فصرت أتعلم من أجلها لغتي الثانية كي نتقاسم الاهتمامات.. وكي أتابع خطواتها باهتمام.. وكانت هي تفعل وأكثر.. فخططنا لنيل المنحة والسفر إلى ألمانيا واستكمال دراستها هناك، وأكمل أنا دبلومة الترجمة التي تقدمت لها بعد تخرجي، لأتعمق في المجال الذي طالما أحببته، فقد كانت أول من شجعتني على العمل في صحف مختلفة كمترجم صحفي.. حتى صرت أتكئ عليها في أحلامي.. هي تشير لي، وأسير أنا.

أضاعت وقتا طويلا قبل أن تطلعني على سر مرضها، ومن سذاجتها كانت تخبرني بعدما أخبرتني بين البقاء والرحيل.. ولم يكن الرحيل في قائمة اختياراتي أبداً.. الجملة التي كنا نقرأها على صفحات فيس بوك ونضحك أنها من جمل الروايات، كتبتها على سلسلة وأهديتها لها في عيد ميلادها «تعاهدنا على السير معًا».. وعجلنا بعدها بإتمام الزفاف.. نوينا أن نكتب الكتاب فقط لنوفر أية تكاليف أخرى للسفر.

كان أهلي يلومون انسيابي لها وانحصر عالمي بين ضفتي عالمها.. وحدي كنت أعرف مرضها، ولم أكن لأجلب الشفقة به أيضًا، هكذا وعدتها ألا أفعل، كنت أدللها كطفلة صغيرة، لا لمرضها المناعي الذي يأكل جسدها يومًا بعد يوم.. ولكن لكونها تلك الصغيرة بالفعل التي ملأت أيامي بهجة ونجاحًا لم أعرفه من قبل رغم تعبها. كيف كنت لا أختار قربها.. وكيف لا وكانت حياة.. حاولت أن تبعثني عنها، وفشلت.

هل ما زلت هنا يا ندى؟

- معك يا كريم.. كنت فقط أستعد للعودة إلى البيت، أكمل فأنا معك ومهتمة..

- أعتذر لو عطلتك.. ولكنك أول فتاة أشاركها ما بداخلي، لم أكن أطيق الكلام هنا مع أي واحدة أخرى أكثر من سطرين، كنت أشعر أنني أهين تفاصيلي معها، بتوافه الحديث العابرة عما أحب وأكره وعن لوني المفضل وأغان أحب سماعها، وعما أبحث عنه هنا.. وحين كنت أتعمد ذكر قصتي معها، اكتفى البعض بالترحم عليها وجاؤن المضي في أي أحاديث أخرى، والحقيقة لا ألوم أحدا منهم.. ولكنني أشكرك لأنك سمحت لي بذلك، جعلني ذلك أفضل عما كنت عليه، الكتابة عنها أمر مريح ليتهم يعلمون..

- كريم.. لو لم أفعل أي شيء ذي قيمة على هذا التطبيق الذي لا أعرف عنه شيئاً إلى الآن، سوى كلامي معك.. فأنا التي ممتنة لك لحديثك عنها.. وسعيدة لأنني جعلتك أفضل، أنت تستحق أن تعيش من أجلها ومن أجل أحلامكما، تحدث عنها رغما عن الجميع، وقتما أردت ذلك ودون حساب لأي محاولات بائسة لإيقافك. ربما توقفت تدريجياً يوماً ما دون أن تدري، حتى يبذل الله لك الذكريات بأخرى ربما أفضل منها.. لا أحب كلام الإنشاء صدقني، لكن كن الشخص الذي كانت تحبه فيك، ربما يصنعك الله على ذكراها لأخرى تكمل معها حياتك راضياً عما مضى. فقط حاول..

- حتى لو كنتِ أنتِ مثلاً؟

ترسم ندى إيموجي الوجه المبتسم بخجل وتقول:

- لا تنس الاتفاق.

يرسل لها واحداً آخر ويقول:

- لا تخافي أذكر جيداً، لا أحد يعلم ربما كان وجودي هنا فقط لأقابلك وأسمع منك ما كنت أرغب في سماعه جداً.. سأخرج من هذا البرنامج لم أعد أرغب في شيء بعد كلامنا، سأعود لكل ما توقفت عنه لأجلها.. سأبحث عن شغل جديد، وربما أسعى للحصول على فرصة سفر إلى ألمانيا كما حلمنا.. أصبحت على يقين أنني لست في حاجة إلى نسيانها، على الأقل مؤقتاً.. وقد يرسل لي الله ندى أخرى ولو بعد حين..

ابتسمت ندى في الحقيقة.. وأرسلت له سلامها الأخير. وأنها سعيدة جدًا
بمعرفته متمنية له كل الكلام الطيب.. وفعل هو أيضًا.. سألها هل ستمشي
حقًا.. فأصرت على الوعد.

كانت ندى وصلت للبيت، شعرت بارتياح رهيب يغمرها، للمرة الأولى تشعر
بأهمية كلامها، وأن بإمكانها أحيانًا أن تترك أثرًا طيبًا.. رمت الهاتف من يدها
على السرير وألقت بنفسها إلى جانبه متعبة.. مبتسمة.. لم تشغل بالها إذا
ما كان كريم يباغتها بحدوتة غير حقيقية محاولا جلب تعاطفها وفتح كلام أو
لا.. إنما أرادت التسليم لمبدأ حسن الظن وأنه لم يطلب منها أكثر من كلام..
وأنها فعلته على الوجه الذي لم ترض بأجمل منه.. وأن البرنامج به حكاية
جعلتها تبتسم.. غير مؤذٍ إلى الآن.

* * *

- محمود

البعد ليس مطروحا للاختيار = سأرحل.

أصبحت ندى تحب رسائل البرنامج.. واعتادت صوت إشعاره أن هناك رسالة من عابر جديد.. أتقنت التجول عليه وعرفت كيف تختار هي الأخرى كما يفعلون هم.. تعودت على اللعبة حتى أصبح من تفاصيل يومها، ومرورها على صور الرجال هناك، كمرورها اليومي على فيس بوك..

اليوم مزاج ندى جميل، اختارت الإيشارب الوردى ومعه قميصا أبيض ذا الوردات البارزة الذي تحبه، مع البنطلون الجينز، نظرت لنفسها في المرأة تلف الطرحة بشكل عشوائي وتلف يمينا ويسارا تتأكد من أناقتها بلونها المفضل، شكلها وألوانها يناسبان أحلامها الوردية لهذا الوقت من العام.. ندى تحب النسومات الصباحية الباردة التي تعلن عن قدوم الشتاء، مداعبًا أحلامها البكر أن الأجل لم يأت بعد.

تأنقت كثيرًا قبل أن تستعد للنزول، وكان لديها متسع من الوقت لتشرب الشاي بلبن مع جدتها في البلكونة. أمسكت بتليفونها في الأثناء التي كانت تنشر الجدة ملابسهما، تحب الجدة فعل ذلك في الصباح، فالليل له رائحة زفرة تلتصق بالغسيل -هكذا تخبرها دوما- قالت ندى وهي ما زالت تنظر إلى تليفونها:

- تيتا، ماذا لو اخترت أنا من أحب فعلا؟ دون سخرية من كلامي لو سمحت.. كأن أحدد قائمة الصفات التي أتمناها فيمن أرغب الزواج منه وعند وجود أغلبها، أعلن اختياري له حبيبا واقعيا غير منتظر، وأخبره بذلك عادي؟

ردت «ثريا» والكلام مُلبك بأطراف المشبك في فمها:

- «فيكي إيه على الصبح يا ندى».. حبيبتى لا نختار من نحب، يختارنا الحب ولا نفعل.

التفتت الجدة حتى جلست إلى جوار ندى، تمسك كوب الشاي بلبن وتناولها الآخر وهي تقول:

- مهما صرت منتبهة لأي هجمات خارجية أو «نكش» الرجال المعروف أنها إشارات البدء، ستباغتك القصة الحقيقية رغما عنك دون التركيز معها، بل في الوقت الذي لا تلقين له بالا للقصة، ولربما عند عزوفك عنها من الأساس.. لذلك الحب يختارنا فجأة، حتى لو بالإسدال وأنت تفتحين الباب للمكوجي يا ندى..

- ليس لدرجة المكوجي يا ستو حرام والله..

- قصدت أحدا من الجيران مثلا.

- «فين الجيران دول؟» وتوافقين أنتِ على مجايب الجيران مثلا! اشربي الشاي اشربي.

وبينما صارت ضحكاتها ونيسهما الثالث، تنهدت ندى بعد الضحك وقالت لجدتها:

- ولكني اليوم أشم رائحته، كمثل تلك الرائحة الحلوة التي تهل علينا من غسيلك هذا.

- ربنا يهديك يا ندى، انزلي حتى لا تتأخري على ميعاد إمضائك..

نزلت ندى من البيت وهي مستعدة لسماع أي كلمة حلوة من غريب، أو حتى لو لامسها غابر في الطريق خطأ.. وابتسم، فقد تظن وهما أن قصة ما على وشك الحدوث حالا.. هكذا نوهم نفسنا بالحب أحيانا..

في المترو تركب ندى من محطة السيدة زينب إلى محطة منشية الصدر حيث مكتبة جامعة عين شمس التي تعمل.. المترو هادئ نسيبا، فتحت البرنامج تصفحت بعض الصور، واختارت واحدة منها، ابتسمت، ليست لملامحه الهادئة وعينه التي اختلط لونها ما بين الأخضر والبني، ولحيته البنية البسيطة، إطلاقا، إنما لجمته التي كتبها في خانة التعريف بنفسه: «أحب الأيس كريم كأي ما زلت طفلا لم يكبر بعد».

دقائق وظهرت لها رسالة التوافق matching.. ورقص قلبها فرحًا بمبادرته الخاطفة «صباح الخير».

محمود شاب في عمر ندى ٣٥ سنة، أبيض البشرة، أحببت ندى عينه قبل أن تلتقي بهما، يعمل في مجال التصميم الإلكتروني وتصميم الإعلانات أيضًا،

للدقائق الأولى صار الحوار شيقًا عن طبيعة عمل كل منهما، عالم التصميم غريب عليها يثير فضولها، والكتب عالم يحبه ويتقن الاقتباس منه أحيانًا، بدأ الحديث سريعًا.. وتجاوزا أطرافه بحرفية لاعبي تنس الطاولة، عن الحياة، والعلاقات، والشغل والطموح، لم تلاحظ ندى أنه كان غير مألوف حاليًا في أول دقائق تعارفهما أن تقوله له:

- يومًا ما ستريني إبداعاتك على الطبيعة وأنت تنفذها.

- فقال لها: «وددت لو صار ذلك اليوم قبل الغد».

شعرت ندى أنه لديه من الكلمات وترتيبها ما يعرف به كيف يلفت انتباهها أو يخطفه. المحادثة طويلة، لا تتوقف.. تُرافقها ساعات عملها في المكتبة.. عرفت أنه قارئ نهم لم يترك موضوعًا إلا وقرأ فيه، أحد أول أحلامها يتحقق بسهولة، أن يكون مثقفًا، ملمًا، حُلُو النقاش، مُستمعًا أحلى، مهتمًا أكثر وأكثر. صحيح يقولون أنه لا تُخدع بسهولة امرأة تُصادق الكتب، لكن للوهم حسابات أخرى.. واتباع أهوائنا أيضًا..

أيام.. وهي ومحمود يتحدثان، لا ينقطع أحدهما عن الآخر، يُنجزان عملهما ويعودان سريعًا للحديث، في كل شيء، حبهما للأفلام نفسها مصادفة، أغنيات ينطقان بها في الوقت نفسه أنها الأقرب.. اهتماماتهما المشتركة، امتلأت بتفاصيل محمود وهي التي كانت حياتها شبه فارغة تمامًا قبله..

تحب ندى الإشارات والعلامات، ولأسباب ما أقنعت نفسها بين ثلاث ليالٍ وضحاها أن محمود هو القصة الأهم التي يمكنها بكل حب أن تختار الدخول فيها بمحض سعادتها واختيارها، وتمنت لو تخيب ظن جدتها ثريا بها.

كانت تظن أنها واعية بالقدر الكافي، أثناء تسلسل محمود لمشاعرها وأنها حريصة كل الحرص معه، فقالت له مرة أثناء حديثهما الذي كان يتخطى الساعات أحيانًا، جملة من فيلمها المفضل *awalk to remember* :

- «عدني ألا تحبني».

وفي الحقيقة بدت وكأنها تدفعه لقولها..

- ولماذا لا أفعل وكل شيء يحدث بيننا يصل بنا إلى ذلك؟

- لا أحب الفراق وأكره أيضًا الانسحاب فجأة.. وأخشى التعلق دون وصول.

- ومن قال أني سأفعل بعدما أحببت اللجوء إليك.. أحببت كل التفاصيل التي تجمعنا يا ندى.. وغير مستعد لفقدانها، متشوق لخوض التجربة هذه المرة معك.

- هذا ما أقصده يا محمود.. أعجبتك التجربة وقد تمل منها في لحظة وترحل.. ويبدو أنك اعتدت كثرتها في حياتك.. وأنا فتاة بلا تجارب على الإطلاق.

- قصص الحب في أصلها تجارب يا ندى.. الراحة وحدها تحدد أجملها.

بخبرة محمود في برامج الاتصالات والتكنولوجيا ومواقع التواصل خاصة، استطاع أن يعرف كل صغيرة وكبيرة سمحت ندى بنشرها على فيس بوك وإنستجرام، ربما لذلك كان الوصول لقلب ندى أسهل ما يكون، وبمكرٍ بالغ يوهمها أن ذلك ما هو إلا بمحض صدفة الإشارات والاهتمامات المشتركة..

محمود لم يبذل مجهودا كبيرا ليسحرها.. فقد طارت فرحًا، يوم رآته يرسل لها صورة كاميرا بطابعة الكروت التي طالما حلمت بها، مقررا أنها ستكون هديته لعيد ميلادها القادم.. وأخبرها أنه حجزها بالفعل من موقع أمازون الشهير، هكذا تعمد أن يُظهر اسم الموقع في الصورة التي أرسلها لها.. ولكنها نسيت أنها كتبت عن حلمها بتلك الكاميرا من سنوات على صفحتها! لعنة السوشيال ميديا والخصوصية المنتهكة..

فلم يكن حتى يتحدث معها عن الأفلام التي تحبها صدفة، فطالما كتبت بشغف عنها على صفحتها مرارا.. ولم تكن صدفة كذلك أن يبادلها كل تلك الجمل والمعاني التي كانت تكتبها عن علاقاتها بالآخرين، لاهتمامها بأدب العلاقات. لذا، ظلت مستسلمة لوهم جمال الإشارات الذي أتقن سحرها به.

ما أسهل أن تكون فريسة مزاجك الجيد.. لتصدق أن هذا العالم البائس أصبح فجأة جميلا والناس فيه طيبين.

ظلت ندى مفتونة بسحر محمود ما يقرب من أسبوعين، تبادلًا أرقام تليفوناتهما وصارا يتحدثان ساعات ليلًا ونهارًا.. تعلقت بحضوره، يخبرها أنها صارت مسكنه وسكّنه وسكّيته وساكنته وسكونه وسرّه وسريرته وسروره..

تقول له والنشوة تخطفها:

- أنا كل ذلك يا محمود؟!!

- أنتِ أكثر يا ندى..

في غيابات سحره، قالت يومًا وهي تتحدث إلى منار في جلسة فضفضة: «أنا بحب محمود على فكرة»، وهكذا لَمَّحت للجدة أيضًا، التي لم تجبرها يومًا أن تحكي شيئًا لم ترغب هي في الإفصاح عنه من نفسها.. لكن هذا لم يمنع خوفها مما تحكيه واستنكارها للطريقة والعالم الذي جاء منه هذا «المحمود».. لكن منار بحكم خبرتها عن البرنامج نصحتها أن تتروى قليلًا..

طلبت ندى كثيرًا من محمود أن يتقابلا، وكان ينجح كل مرة في إخبارها أن لكل شيء أوانه، وأن ذلك سيحدث قريبًا في الأوان المناسب، حتى قرر أن يفاجئها بأوانه هو الأنسب، فرتب لحدوث ذلك بالقرب من بيتها بالمنيل، فهو يعرف من أين يؤكل قلب ندى، رسم كل شيء بتفاصيل الأفلام التي تحب، ونامت هي بعد مكالمته تحلم باللقاء الأول، الذي اختارت له أجمل ثيابها مبعثرة أكثره في فوضى عارمة بغرفتها..

والجدة لا تعلم شيئًا عما يدور في بال ندى.. ولا عما تنوي فعله.

في مواعدهما وعند المكان المتفق عليه بالقرب من «لارين» وقفت تنتظره، ظلت تهاتفه عشرات المرات.. الوقت يمر، لا يرد!

شل تفكيرها وهي التي لم تحسب لتلك اللحظة من شدة فرحتها وهي تنتظره، لم ترغب في الذهاب إلى عملها ولا لأي مكان آخر.. فعادت لبيتها حزينة، مفتعلة أي سبب تخبر به ثريا لرجوعها الباكر..

الساعات تمر ومحمود لا يجيب.. حتى الرسائل لا يجيبها عكس عاداته.. اليوم كله يمر وندى لا تعرف ماذا حدث مع محمود.. وبعد محاولات بائسة للوصول إليه.. بعد ٢٤ ساعة تأتي رسالة صوتية على الواتساب من تليفونه، لكنها بصوت صديق له يخبرها أن محمود حُجز بالمستشفى بعدما أصيب بمغص كلوي شديد!

لم يكن لها إلا أن تصدق ما سمعت، بل تتعاطف معه وبشدة.. لكن الشك جاءها ضيقًا مُرحبًا به بعد هذا الموقف الغريب، وساعدتها صديقتها منار على احترام شكها، وأن تهدأ من انجرافها وراء مشاعرها قليلًا.. فسلمت مؤقتًا بحجته، حتى جاءها اليوم التالي معذرًا، واعدًا بعدم اختفائه مجددًا وأنه لم يكن يشغله في عز تبعه إلا أن يبلغها ما حدث له، حتى قبل أهله.

لم تعد سعيدة كما كانت الأيام الماضية.. حتى ثريا لاحظت أن لمعة عيونها انطفأت في أحاديثهما العابرة.. كانت تنتظرها كل ليلة لتحكي لها ما يدور بينها وبين هذا الغريب، ولم تكن تحكي.. توالى الاختفاءات المطولة من محمود وتحجج بأدويته الكثيرة التي تجعله طريح الفراش ساعات طويلة من اليوم وتمنعه من الشغل أيضًا.. صارت أكثر شكا وحرنا.. كثرة توقعاتها أودت بها أرضا.. فكان الخذلان الذي طالما خافت منه، أسرع إليها في الوصول من محمود نفسه..

تمسك تليفونها تعسة تقرأ الرسائل القديمة، تحاول فهم القصة من أولها.. تجلس إلى جوار «ثريا» التي تشاهد مسلسل حديث الصباح والمساء للمرة العاشرة تقريبًا.. المسلسل هو المفضل لهما معًا.. في المشهد تُخبر عبلة كامل أحمد رزق عن «خير كثير قادم إن شاء الله».. تجد ثريا تلك الجملة مدخلا مناسبًا للحديث مع ندى..

- أشعر أن خيرا قادمًا إليك يا ندى.

ضحكت ندى في أسى تقول:

- «شكله إيه الخير ده يا ستو بقى؟».

- «البُعد يا ندى».. يصبح أحيانًا خيرا كثيرًا، بمن نظن قريهم يا حبيبتى سعادة، يعرف الله أنه شر فيعدهم، حتى لو لم نكن نرغب في رحيلهم.. فكيف نسأل الله أن يقربنا من شخص لو كان خيرًا، أو يصرفه لو كان شرًا، فنحزن إن استجاب وصرفه؟! أليس هذا خيرا يا ندى؟ أنتِ لم تخبريني منذ أيام عن قصتك مع محمود، وأرى أنك حزينة، ويبدو أيضًا أنه لم يعد موجودا.. كل مُفارق بعده راحة يا ندى.. اطمئني حبيبتى.

لم ترد بكلمات كثيرة، لكنها قبّلت جدتها وحصلت منها على حزن عميق أعاد إليها سلامها قليلا، دخلت بعده إلى سريرها لا تخشى شيئًا بعده.. ولا حتى فراق هذا «المحمود» إن حدث.

قبل اختفاء محمود بأيام، كان قد أعلن لها عن حبه صراحة بالمفردة نفسها، كانت المرة الأولى التي يهتز قلبها لتلك الكلمة، من شخص لم تره بعد.. أخبرها عن تعلقه بها، عن أمنيته في أن تصبح هي الوجه الذي يستيقظ عليه كل صباح.

كانت تحاول تذكر المرات التي اختلفا فيها، لم تكن كثيرة، لكنها استعادت تلك المكالمة التي تحدثا فيها قرابة الأربع ساعات متواصلة حتى سمعًا أذان الفجر معًا.. أخبرها يومها عن علاقاته السابقة وكيف أنه كان يفعل كل شيء فيها بدافع الحب دون حدود، وأنه لم يكن ليُحَقَّر من شريكته وقتها فيما يفعله لأنها كانت تفعل ذلك معه حبًا، غير أنه آمن لاحقًا بحرمانية الفكرة، فلم يعد يستسيغها.. تقبلت ندى فكرة اعترافه بالحرمانية.. وغضت الطرف عن أية نوايا غير معلنة.. في المكالمة نفسها تكلم محمود عن دفء قربه منها، وكيف أنه أصبح متعلقًا بها، يتخيلها كل يوم نائمة في حضنه، يلامس خصلات شعرها بلطف. وتنام كالطفلة بين يديه.

علقت ندى وقتها أنها لا تقبل تلك الطريقة في التقرب، وطلبت ألا يكررها، وتذكرت كيف كان رقيقًا في اعتذاره وأنه لم يقصد إلا التعبير عما يشعر به نحوها.. ومرت الليلة بسلام بكلامه المعسول المعتاد ولم يعد لذلك مجددًا فعلا.. تتذكر كل ذلك ولا تجد سببًا مقنعًا لبعده.. فتنام متعبة من أفكارها المبعثرة.

في الصباح تنزل إلى الشارع متجهة للمترو، تنظر للناس وملاحظهم بألفة، عليها تراه فيهم.. خصوصًا وقد صارت رسائله مقتضية جدًّا، يخبرها أنه ما زال مريضًا يتعافى، وينام كثيرًا، ويعمل عدد ساعات أقل من منزله، لكنها كانت غير مطمئنة لهذا الاختفاء التدريجي..

ضاع الونس المزعوم من ندى وصارت وحيدة من جديد.. أرسلت ندى رسالة لمحمود أنها ستترك له حرية الوجود أو الرحيل وأنها لم تعد تحب الانتظار لأنه غير مطروح بين المحبين.. الانتظار يقتل اللهفة.. واللهفة أحلى ما في البدايات..

جاء رده بعد ١٢ ساعة، في رسالة أيضًا..

- «الرحيل غير مسموح والبعد ليس مطروحًا للاختيار.. أنا هنا لأنني أريدك».

زادتها الرسالة حيرة وشعرت منها بالخيبة.. فمن يرد لا يغيب.. شغلت نفسها بالقراءة من جديد، وأخبرت نفسها أنها هي الأخرى ستتعاوى قريبًا من تعلقها به وأكدت ذلك لمنار في آخر حديث بينهما، وأن إعلان حبها له كان مجرد إنذار كاذب..

تقرأ رواية لرضوى عاشور (خديجة وسوسن) وتعلم بال «ماركر» على جملة أعجبتها «كيف يمكن للمرء أن يركض محمومًا في اتجاه إنسان ثم يعود

يركض في الاتجاه المَعاكس؟».. تعلم أن القراءة وحدها قادرة على أن تخلق كل العوالم التي تغنيك عن كل البشر، بل وتعلمك أحيانًا طرقهم في الخداع فتحصن نفسك.

لكنها رغم كل ذلك كانت تريده..

ندى كانت تعلم جيدا قبل وقوعها في هذا الفخ الساذج أن الحب قد يبدو في أوله براقًا. لكنه لن يبقى في أهمية التفاهم والود الذي يسمح بمساحات أمان لا تنقطع.. فشخص يمنحك الأمان أفضل من أن يعلن عليك حبًا ظاهره سعادة، باطنه الخوف والقلق من الرحيل فجأة.. وهو ما فعله معها محمود.

في أحد الصبائح الثقيلة، أرسلت له تواجبه معلنة قرارها بالتراجع وأن ثمة شيئًا من الاندفاع قد حدث بينهما.. متمنية له التوفيق في حياته.

لكنه قرر أن يظل البطل للنهاية وأن ينهي القصة بطريقته كما بدأها. اتصل بها من تلقاء نفسه بعد ثوان من رسالتها.. ارتبكت لما رأت اسمه لكنها ردت بسرعة أيضًا..

- أنت بخير يا محمود؟

- نعم يا ندى ولكنني وددت الحديث معك قليلا..

- كنت أنتظر ذلك جدًا.

- أعلم أن بداخلك أسئلة كثيرة وأنت لا تستحقين إلا الحصول على إجابات لها. فالرحيل فجأة معناه أن يظن طرف أنه لم يكن أبدًا كافيًا، وأنتِ تكفين أعظم رجل يا ندى.

ضحكت ندى في سخرية وهي تقول:

- ظننتك أنضج من أن تخبرني الجملة الشهيرة «تستحقين رجلا أفضل مني».

- الموضوع لا يتحمل سخريتك أرجوك.. أنا أحببتك فعلا يا ندى.. حتى وإن لم تتقابل.. رأيتك كل الأمان التي حلمت بها في كل مرة ارتبطت فيها.. كلهن أحببت فيهن أشياء فرادى.. اجتمعت كلها فيك.. غير أنني لن أحصل فيك الآن على أم كوارثي التي لم أستطع بعد الاستغناء عنها أو التعافي منها!

تؤجل ندى كل كلامها الذي كانت ترتبه، فضولاً لأن تسمع أسبابه المعلنة..

- كوارث، خير إن شاء الله؟!

- نعم.. فما زلت متعلقا بالتواصل الجسدي.. الحب عندي أن يتجاوب الجسدان ويشعران ببعضهما.. وأنت ببساطة لن تسمحني بذلك مهما صار، وهو حقك تماماً..

ضحكت ندى بصوت عالٍ فجأة وهي تقاطعه:

- ثواني ثواني.. أليس هذا هو الذنب الذي اعترفت أنك تبت عنه؟ مزحة أنيقة جداً في الحقيقة، أنت ترحل لأنني لم أكن في انفتاح وحرية من صاحبتهن.. ولأنك لن تتمكن معي من فعل أي مما فعلته معهن؟ فعلاً!!

- عاهدتك الصراحة منذ تحدثنا أول مرة.. ومنذ أحببتك صار العهد أثقل.. أنت أنظف من أن أكمل أي خطوة معك جديدة.. ما زلت عالقا في شهوتي.. غير أنني لست مستعدا للزواج الآن.. أنت لا ذنب لك.. آسف لم يكن صحيحا أن أقرب منذ البداية..

تسكت في ذهول ولا تجد ردا.. تسمع صوت ضربات قلبها أعلى من صوت حديثه..

أنت لست بهذا الضعف أنا أعرفك ستتجاوزين تلك التجربة سريعاً.. لديك الكثير لتعطي.. حافظي عليه لغيري يستحق.. وكوني بخير من أجلك..

ودون ترتيب نطقته وهي تبكي:

- فعلا كنت البعد الذي يجلب الخير.. آسفة لنفسني أنني سمحت لها بتصديقك.

أغلقت ندى الهاتف مفطورة من البكاء، جرت على جدتها التي كانت تجهز الفطور لهما.. حكّت لها كل ما حدث من أوله للمكالمة الأخيرة، وصوت نحيبها يُخفي نصف الكلام. تسمعها ثريا وهي تحضنها فقط وتربت عليها بيدها الحنونة لكي تهدأ..

أحياناً لا نحتاج إلا لهذا الحزن الصامت.. تُفرغ فيه كل بشاعات العالم ونستريح.. لنكمل من جديد.. وهذا ما احتاجته ندى، ودائماً ما كانت تجده عند

ثريا.

بعد يومين هدأت ندى قليلا.. مقررة أن تغلق الموضوع بطريقتها وليس وفقما قرر هو.. شخصية عنيدة رغم انطوائها.. فقررت أن تذهب لمحمود بنفسها.. هي تعرف اسم شركته من كلام سابق بينهما، في التجمع.

كتبت كلاما كثيرا مُرتبا في ورقة لتعيده أمامه.. نصف ساعة مسافة وصولها للمكان من بيتها.. التجمع عالم مخيف لها لم تذهب إليه من قبل. حينما أخبرها سائق أوبر أنها وصلت لتوها، لم تدر شيئاً عما تفعله، نزلت وأرسلت رسالة تخبره أنها تقف أمام شركته تود التحدث له للمرة الأخيرة. ولم تتوقع أن يرد سريعاَ بالموافقة، رغم علمها أنه لا يحب المفاجآت.

لم ترتد أفضل ما عندها ولم تتأنق للقاء المفترض أنه الأول. على العكس بدت شاحبة بعض الشيء لكن عيونها تلمع بقوة، رآته يقترب منها.. نفس شكله في الصور ولكنها الصور تُجمل أكثر دائما، استجمعت نفسها وابتسمت ابتسامة فاترة لا تخلو من الاستنكار، مد يده ليسلم عليها ولم تكسفه، فأطال السلام ولم يفلت يدها، قبل أن تفعل هي في ارتباك، شعرت ببرودة في جسمها كله، لم تقل كلمة واحدة مما كتبت في رأسها.. لكنها نطقت فجأة:

- جئت أتأكد من أنك شخص عادي جدًا مقارنة بالصورة التي رسمتها لك في خيالي.. جئت أنظر في عينيك تلك اللتين للأسف أحببتهما قبل أن نلتقي.. لا أعرف في الحقيقة يا محمود هل كنت أحببتك فعلا؟ أم تسلى بي الوهم كفتاة ساذجة مقبلة على الحياة تبحث عن شريك فيها بعد الثلاثين، فكنت فريسته الأسهل، لا أعرف فعلا!

لم يحاول مقاطعتها وتعهد ألا ينظر إليها، ربما خجلا منها، فشجعها ذلك على استكمال كلامها..

- لا أعرف غير أنني خذلت نفسي، وأنت كنت أول حكاية سأحكيها يومًا في جلسات التعافي ربما، أو أكتبك في قصص عن الخذلان.. محمود أنت فعلا مسكين.. شكرا لأنك علمتني ألا آخذ أي علاقة في حياتي على محمل الجد أبداً..

رغم سكوته، حاول محمود أن يمسك بيدها، لكنها ابتعدت بجسدها كله قبل أن يفعل، ولوحت بيدها تودعه، وبابتسامة منتصرة تشعرها بالارتياح. رحلت ولم تلتفت.. في طريق العودة بكت كثيرا.. وحذفت كل رسائله وأغلقت كل

وسائل اتصاله.. تركت فقط رقم تليفونه وصورة له! لا تعترف ندى بعد بلعنة
الأبواب المواربة..

* * *

جوابات إلى غريب.

الساعة ٨ صباحًا.. الشمس تدخل خيوطها بهاء وفخرًا من ستارة حجرتها بعد شتاء كئيب تحبه رغم كل شيء.. تشم رائحة اللبن قبل أن يفور. تعرف أن جدتها سترفعه في الوقت المناسب «البنات الشاطرة ماتخليش اللبن يفور» هكذا دائما تخبرها بثقة..

يختلط برائحة اللبن خبيز ما هارب من الفرن إليها وكأنه طفل أراد إفشاء سر خطير، لربما كانت الكيكة التي تحب بالبرتقال، أو قراقيش العجوة الهشة.. لا يهم نوع الخبيز، فالرائحة تخبرها أن مزاج الجدة اليوم طيب جدًا.

ترتب سريرها خوفًا من أن تفعل هي عنها كحال سنوات مضت من عمرها، لا أحد يرتب السرير أفضل منها.. «شغل فنادق» شدة الملاية منها بعشرة من أمثال ندى.. وقبل أن تخرج من الحمام تسمع خطوات الجدة المتمهلة فتعرف مسبقًا أن صينية الفطور قد استراحت وأخذت وضعها اليومي على المنضدة؛ كوب شاي بلبن وساندوتش جبنة رومي بالبسطرمة، يشاركه الحب آخر محشو حلاوة.

- يلا يا ندى سيبرد الشاي يا ابنتي.

- يسلم قلبك يا ستو.. جاية أهو.

تأكل متمهلة وهي ممسكة بكتابها هذه الأيام «قواعد العشق الأربعون» لإليف شافاق، كانت تحب تدوين كل قاعدة في «نوت» لا تفارقها إلى جانب سريرها، في الحقيقة كانت تسجل فيها كل ما يعجبها في أي كتاب تقرأه.. ربما لو عادت لتقرأ ما كتبت في تلك المدونة، لنسجت من كل تلك السطور قصة ما مستقلة بذاتها.. فاختارت التدوين مهربًا آمنًا بعد ثريا..

لا تعرف ندى إذا كانت موهوبة في الكتابة أم لا.. فكل ما كانت تحبه هو أن تخرج ما لا تطيق به صبرًا وكتمانًا على الورق.. ومرات مع صديقات أيامها القلائل.. في ذاك الصباح فكرت ندى أن تكتب ما يحدث لها في هذا البرنامج الغريب هنا في دفترها الروز الأنيق ذي الرباط البني المصنوع من الخيوط الخشنة، ندى مهووسة بشراء الكثير منهم، حتى إن لم تكتب فيهم شيئًا.

مجرد اقتناء أحدهم يدخل لقلبها السرور.. وأن يهاديها شخص بواحد منهم هو بمثابة هبوط سريع اضطراري لمطار بهجتها..

أنهت إفطارها البسيط وارتدت ملابسها بسرعة واثقة الاختيار، ونالت نصيبها من مخبوزات الجدة في علبة معها لربما تتسلى بها لاحقا في ساعات العمل.. وسلمت على ثريا تقول:

- «ماتوزعيش كل القراقيش على الجيران يا ستو».

وضعت سماعات هاتفها على قائمة الأغاني التي تحب.. ولم تقترب من رسائل البرنامج منذ يومين.. كنوع من التحدي أنها يمكنها فعل ذلك وقتما تقرر وتريد.. لا وقتما هم راسلوها.. بعدما تعلمت من درس محمود قليلا..

في المكتبة كان الأمر هادئا كالعادة، الطلبة لا يأتون هنا بالشكل المربك.. نوعيات معينة ما زالوا يدركون أهمية الغوص وسط مئات الكتب للحصول على البحث الأمثل والمعلومة الأشمل.. على الرغم من أن المهام التي يقوم بها أمناء المكتبات قد تختلف استنادا إلى حجم ونوع المؤسسة، فإنه ما زال هناك العديد من المهام الأساسية التي يقوم بها معظم أمناء المكتبات، التي أصبحت ندى واحدة منهم، كتنظيم كتب المكتبة بعد انتهاء اليوم أو بعد اطلاع أحد الطلبة، ليُعاد العثور عليها بسرعة وبسهولة، ندى أيضًا أصبحت مع خبرة السنوات متمكنة في مساعدة الطلبة في إجراء بحوثهم والعثور على المعلومات والمراجع اللازمة، بل وتوجيههم أحيانا للكتاب الصحيح ذي «الخلاصة»، هي تعلم جيدا أن بإمكانها هنا توفير ما لا يقدر «جوجل» عليه أحيانا.. لربما كان ذلك من مهاراتها الخاصة للإبقاء على حبه للمكان..

بضعة أشخاص ينتشرون في المكتبة كل منهم مشغول في اطلاعه، بينما لمحته بعيدا في آخر ركن يكتب كثيرا ولا يرفع رأسه إلا قليلا.. وكأنه ما جاء هنا إلا ليكتب.. يختلس النظر إلى مجلد بجواره ثم يعود ليكتب مستغرقا من جديد.. لم تشغل بالها به طويلا ما دام لم يخرج عن المألوف أو يحدث أي شيء من المخالفات، كأن يصور أيا من صفحات الكتب مثلا.. هكذا ادعت، لأنها ببساطة كانت تكثر اختلاس النظر إليه بين الدقيقة والأخرى تراقبه..

كانت معجبة بطريقة اقترابه من الورق أثناء الكتابة، يميل بجسده إليه كأن بينه والورق سرا عظيما يخشى أن يطلع عليه أحد.. يحضن الورق بحميمية دافئة في ودٍ لافت. أعجبها أيضًا ذوقه الكلاسيكي في اختيار ملابسها، يرتدي قميص كتان بيج، وبنطلون جينز بحزام أنيق من الجلد البني يلف خصره

النحيف، هيئة تجعله في وقار من قارب الخمسين وهو على ما يبدو من ملامحه وبنائه الرياضي أنه لم ينه عقده الثالث حتى.

ابتسمت ندى في داخلها ابتسامة صاحبها تنهيدة طويلة، وتمنت لو تعود للكتابة كما رآته يفعل، فما زالت فكرة الكتابة عن البرنامج تشغلها، ولكنها كانت تريد ما هو أكبر من مجرد الكتابة عن العابرين هناك.. ثمة شيء أكبر يستحق أن تفعله بالكتابة.. هكذا كانت تفكر.

تهاتفها منار في تلك اللحظة فتخرجها من شرودها وبعد سلامات عادية واطمئنان على الحال، تقول ندى فجأة:

- «منار تيجي نحضر ماجستير؟».

- «ماجستير إيه استهدي بالله إحنا خلصنا كلية بالعافية».

ضحكتنا معًا حتى خافت أن يسمع الموجودون بالمكتبة صوتها، بعدما تذكرت كيف أن ندى بالكاد فعلا أنهت دراستها وكيف أخذتها الجلالة لتدرس الدراسات العليا بعد الجامعة فلم تقدر على استكمالها وهي التي عُرفت بقدرتها على الحفظ السريع من حبها للقراءة.. تحدثت في تفاصيل كثيرة عن أيام الجامعة والمذاكرة والامتحانات وأنها لم تجدًا فيها شيئًا مميّزًا لإعادة اكتشافه في درجة علمية جديدة.. صحيح تجاوزت الكلام عن الماجستير، لكن ندى كانت تعرف أنها تريد شيئًا ما، يجعلها أكثر ارتباطًا بالحياة وحبًا لها، وحدثها عن الماجستير كان أول الأفكار السهلة لمحاولة الوصول لذلك.

في هذا اليوم كانت محاولة ندى للكتابة غريبة وغير متوقعة بالمرة، بعدما قررت دون أن تدري أن تكتب لذلك الغريب، الذي لم تفكر حتى في البحث عن اسمه في دفتر الموجودين بالمكتبة اليوم، وهو أمر أسهل من رشفة قهوتها الصباحية، فقد أحببت أن يظل غريبًا، فالكتابة لشخص لا يعرفنا يسر دون الآخرين.

لم ترتب مفردات رسالتها الأولى له، ولا عما تريد الحديث فيه، لكنها بدأت بورقة أخرجتها من درج مكتبها، كتبت فيها:

- تأخرت كثيرًا أيها الغريب.. أكنت تحتاج كل تلك السنوات ليحل قمر معًا ليك؟! الكون أضاء أخيرًا يا سيدي، فانتك أحداث كثيرة حدثت لي في السنوات الأخيرة.. في الحقيقة أنا أكذب كما تعلم، لا داعي لتباغتني بتلك الضحكة الخبيثة.. نعم لم يفتك كثير، لرتابة ما كنت أعيشه، لكنني أشعر أنه

صارت لدي تفاصيل أود إخبارك بها دون جدتي.. فرق أجيال يحول بيننا، رغم نور حبها وهالته اللذين يحاوطانني أينما سرت. أعلمت ما فعله هذا المحمود معي، أتعرف لماذا تعلقت به؟ نعم قد تكون مستاءً مني أيضًا لكوني دخلت هذا البرنامج.. صبرًا سأخبرك وستفهم الأمر.. القصة من أولها أنني...».

لم تدر ندى بالوقت، إلا عندما دخل أحد العاملين بالمكتبة يستغرب وجودها إلى هذا الوقت، وهي التي لم تفعل ذلك منذ تعيينها، فقد اعتادت أن تنصرف في المواعيد المعروفة.. حتى «الغريب» قد انصرف أيضًا دون أن تلاحظ ذلك، فقد انشغلت بالكتابة إليه..

عادت ندى إلى بيتها متأخرة وسمعت بضع جمل توبيخية من ثريا لعدم سماعها تليفونها.. كلها كانت جملا عادية تعتاد سماعها على فترات، لكن أربكتها جملة جديدة من الجدة:

- «ماكنتيش بتردي عليا عشان بتكلمي حد على المخروب اللي معّاكي، صح؟!».

شعرت ندى بثقل على صدرها، لم ترد على اتهام الجدة، حبًا واحتراما لها، وحرنا من سوء ظنها.. وبطحة كانت تعلم أنها تحملها فوق رأسها!

دخلت غرفتها مستاءة.. بدلت ملابسها مسرعة وأمسكت النوت الوردية، تكمل كلامها مع الغريب:

- «اليوم لم يكن الأفضل رغم أنه اليوم الذي التقيتك فيه، ظنت بي ثريا أنني انشغلت عنها برواد ذلك البرنامج. لم ألتفت إليه اليوم ولا أمس.. ثرى ما يحدث هناك الآن؟ العالم هناك مريب جدًا يا غريب ولكنه مثير، من فترة مثلا تحدثت إلى شخص لم يعلن لي أنه متزوج إلا بعد فترة من كلامنا، أفصح لي ذلك بعدما أحس بالارتياح لي، وأنه لم يدخل إلا لتمضية وقت ممل عابر له.. واستحرم أيضًا خداعي.. وآخر كان يسمعي حلو الكلام، ليزيدني ثقة بنفسني ولا أعرف من أين فهم أنها قليلة، حسبما فسر هو احتياجي.. ولم أكن لأخبره أي شيء عني يشعره بذلك، سوى أنني لم أرتبط من قبل، ألهذا علاقة مثلا؟ أخبرني بعدها أنه لا يبحث عن ارتباط هنا لأنه يحب زميلته واتفقا على الزواج!

أتعلم يا غريب أنني لا أتذكر أسماء بعضهم! خصوصا الذين لا تتعدى محادثاتي معهم ساعة متفرقة أو أقل، بل وينتهي الكلام مع بعضهم دون سلام أخير حتى.. ومع ذلك يعجبني الكلام معهم، ولا أنكر رعبي من هؤلاء

الذين يكتبون لي مفردات جنسية من أول دقيقة ليختبروا رد فعلي، فينتابني إحساس منفر من حالي وما فعلته لنفسي، وسرعان ما يتلاشى بضيف جديد يتحدث لي عادي فأنجذب للفكرة مجددا.. لست مريضة صدقني لذة الحديث معهم لن تعلمها إلا إن جربتها..

حاضر، سأخبرك كل شيء يحدث هناك يا غريب لا تقلق، المهم ألا تلقي عليّ الأحكام مسبقا، اتفقنا؟ نعم اتفقنا لا تجادلني أرجوك.. ودعنا نتفق أيضًا أنك ستكون سري الأمين وناصي الأهم، أشعر أنك في مرحلتي العمرية نفسها وستفهم ما أشعر به وأخبرك عنه.. حاضر يا سيدي، سأصالح الجدة طبعًا، لا ينتهي يومي إلا برضاها.. هي السلام الذي حل على قلبي منذ جئت الدنيا ولا أمان بعدها..

إلى اللقاء يا غريب».

-ع-

مصطفى..

نداهة الأربعين

مرت أيام وندي لا تفعل شيئًا سوى الإمساك بالتليفون والانغماس في الحديث مع رجال «تيندر» كأنها في عزومات غرامية متواصلة لا تنتهي. والجدة تخاف عليها التجربة ولا تملك إلا أن تتركها لنفسها خشية أن تخسر فرص الحكيم الموجودة بينهما، ثريا لا تعلم عن خطوة البرنامج شيئًا بحكم انفصالها عن عالم الإنترنت كله، وهي التي رفضت مرة دعابة ندى أن تنشئ لها صفحة على فيس بوك بحجة أنها لم تخلق لأن يكون لديها وقت فراغ من الأساس.. ومع ذلك كانت تخاف على ندى من هذا البرنامج.. وهي لا تفعل شيئًا سوى التعرف إلى المزيد.

دخلت ثريا عليها في المساء تناديها لتناول العشاء معها، وقد انضمت إليهما واحدة من الجيران على طبق «بصارة» طبخته للتو.. أحلى طبق بصارة تتفوق ثريا في إعدادها بالعمارة كلها، بشهادة الجيران التي تحب أن تهاديهم منه عينات في كل مرة تطبخه.. نادى عليها مرات قبل أن تدخل عليها:

- «هيا يا ندى خالتك أم أسماء هنا وستتناول العشاء معنا ألم تسمعي صوتي؟!».

- هل ناديت عليا أصلا، سامحيني سوف آتي حالآ.

خرجت الجدة لكي لا تترك الجارة بمفردها بعدما وعدتها ندى بأنها ستلحق بها حالآ.. لكنها عادت لها تفها وسرقها الوقت، تتحدث إلى أحدهم، ربما كان رقم ٢٠ في قائمة من تعرفت إليهم منذ دخولها البرنامج، وأغلبهم مجرد محادثات عابرة، حوالي ٦٠ يومًا على تيندر، صارت خبيرة بعد هذا العدد بأسباب دخولهم، سواء من دخل للفضفضة، والمتزوج الذي دخل لاصطياد فتاة تقبل بوضعه، ومن دخل لغرض جنسي بحث لا يرقى لأن تتحدث إليه سطرًا واحدًا زيادة، وقلّة قليلة دخلوا للبحث عن صداقة لربما صارت حبًا في القريب العاجل.. وعند أمثالهم تأخذ استراحتها وتلتقط أنفاسها قليلًا..

في إحدى جولاتها هذه الليلة.. كانت قد لمحت صورته بشعره الأبيض وأناقة ملبسه قبل أن تنادي عليها ثريا، مكتوب إلى جانب صورته -٤٤ سنة- سن لم تتخيل أنها ستجده هنا، شيئًا ما جعلها تتوقف لوهلة، أزاحت على صورته اتجاه اليمين، فظهر لها أنه اختارها هو الآخر.. بالكلمة الخضراء المميزة إياها matching

وبالسرعة نفسها بدأ الكلام..

- أهلا ندى، أنا مصطفى.. أتمنى أن تكوني بخير ما دمت هنا، أعذر منك وقتي أهم من أضيعه في محادثة كتابية خصوصا وهو برنامج للتعرف.. هل تمانعين إن تحدثنا على الهاتف؟

- أهلا مصطفى.. على ما أعتقد أنني بخير طالما أنني هنا فعلا -ملاحظة مهمة- ولكن أبتلك السرعة تطلب تليفوني، دون أن نعرف عن بعضنا ولو شيئًا؟!

- وهل هناك ما يمنع أن نعرف ما نريده على التليفون؟ حسب ما لمحت من صورتك هنا، أنك شخص يحب الكتب، يعني العالم بدماعك أكبر من مجرد محادثات مملة هنا، فظننت أننا سنتفاهم سريعًا، هل لديك مانع؟

- لكنك ومع كل هذا تظل رجلا غريبا لأهاتفه من أول دقيقة تعارف!

- هنا لن تقابلي إلا غرباء يا ندى، مهما زاد عدد المحادثات. لا أحد يتحدث بالحقيقة، لا أحد يتحدث عن نفسه كما هي.. الكل يخبرك ما يريد فقط أن يكون عليه، أو ما تمنى أن يكونه، في الكتابة فرص التعديل تُفقدك التلقائية، وتعلمت أن الحقيقة تخرج في حروفك الأولى بالكلام، صوتك وإحساسك،

تلعنمك، ردك السريع، الكلام يظهر ما فيك.. سقراط قال تكلم حتى أراك.
لم يطلب منك الكتابة يا ندى! ها، تليفون؟

خطفتها ندى طريقته بلا شك، حاولت الجدال فترة لم تصمد فيها طويلا،
عندما قاطعها فجأة:

- ندى، آخر جملة سأكتبها لأنني لا أحب المحايلة، الصوت كما أخبرتك يقطع
كل المسافات، صوتي وصوتك سيخبراننا كل شيء.. لا تضيعي الوقت،
دقايق وسأخرج وسأعتذر نيابة عنك.. مترددة، تقليدية كالأغلبية وبطيئة في
قراراتك، للأسف يبدو أن الكتب لم تغير بعقلك شيئاً!

استفزها كلامه وطريقته وكتبت:

- كنت على وشك أن أكتب رقمي حالاً وبعد سطرِكَ الأخير أمامك اختيران،
إما الاعتذار عن وصفك السخيف الذي لا يعنيني بالأساس غير أنني لا أقبله
وأنا حرة طبعاً، إما أن ترحل فعلاً ولا تضيع وقتك، فلا حاجة لي بالكلام مع
متعجرف مثلك، أسفة لو علمتكَ الكتب المزيد منها.

- اتفقنا. نتكلم وأعتذرلك..

ووضعت رقمها فقط لأنها أرادت أن ترد على غروره وعجرفته ولأنه استفز
كبرياءها أيضاً.. ثوانٍ واتصل.

- «إزيك يا ست ندى هل أخبروك أن التليفون يعرض؟ أو هل سأخرج منه
لأتحرش بك مثلاً، إنها مجرد مكالمة يا صغيرتي لا تهولي القصة».

- «صغيرتك؟! أبتلك الطريقة ستبدأ كلامك مع فتاة في الـ ٣٥ من عمرها
تتعرف إليها حالاً؟ أهكذا تعتذر؟».

- آسف لو ضايقتك طريقتي طبعاً.. لكني لا أطيق الكتابة فعلاً، ثم أتحسبين
العمر بالسنين فعلاً؟

- أوضعوا له حساباً آخر عندك؟

- آه.. بالنسبة لي العمر أحسبه بما عشته سعيداً فيه، بما حققت فيه من
أحلام، بكل ما جربته من جديد وتحديث فيه نفسي والآخرين حولي.. حتى لو

فشلت المهم أني جريت، العمر في حسبتي بعدد الصدمات التي صرت بعدها أقوى، بل وأصغر عمراً.. يعني العمر لي ليس رقمًا يا صغيرتي.

- طيب.. دعك من تلك الكلمة السخيفة، لا أحبها على كل حال، تماما كما لم أحب طريقتك في بدء الكلام..

- ولكننا نتكلم الآن وهو الأهم، بالمناسبة يعجبني صوتك جدًا.. دافئ كالشتاء وهادئ كلياليه وبه ونس الحبايب.. يبدو أنني أعجبت بك يا ندى.

- يا سلام.. أتعجب بوحدة بعد خمس دقائق كلام من صوتها يا صاحب الـ٤٤ عامًا.. يبدو أنك متعجرف ومتهور والله!

- وبتلك الطريقة تبدئين كلامك إذن مع رجل في عمر الأنبياء تخطى الـ٤٠؟

- هاهاها أنبياء! ما لك أنت وما لوجيهم يا مصطفى، أضحكنتني والله، في أي المجالات تعمل أيها المغرور؟

- يسعدني إضحائك على كل.. لست مغرورًا ولكني واثق من نفسي جدًا حد الجنون، الذي يفقدني السيطرة على نفسي أحيانًا إن تجاوز شخص ما معي.. بخصوص عملي، فلدي دار نشر لنشر وطباعة الكتب الدينية، ولدي أيضًا من الخبرة في التعامل مع البشر ما يضمن استمرار كلامك معي أطول وقت ممكن!

- ممم، دار نشر وكتب دينية وغرور لافت.. ونية لكلام أكثر وأنا لا أجد في كلامي معك سوى فضول ربما اختفى منذ قليل.

- بدأ لتوه يا ندى. أصدقين في تخاطب الروح؟

- بل أصدق ائتلافها.

- وأنا أشعر بها تخاطب روحك.. منذ زمن لم أتعرف إلى فتاة شفافة مثلك، صحيح لم أر صورتك إلى الآن، والصراحة لست في حاجة لها مؤقتًا بعدما شعرت خفة روحك ونقاءها.. أتمنى الركون إلى روحك يا ندى.

- كلامك كبير يا مصطفى.. أنا شخص بسيط أخاف كلام الإنشاء ولم يحدث بيننا كلام من الأساس بعد..

- بالعكس يحدث ما هو أعمق في الكلام، الرغبة، أنتِ ترغيبين في معرفة المزيد عني وأنا أكثر منك.. وسأشرب غدا القهوة في رحاب عينيك العسليتين، هما كذلك؟ وأعتقد أيضًا أنكِ سمراء.. صحيح؟

بضحكة مستنكرة ردت:

- قهوة، وغدا؟ فعلا تصدق؟ مجنون..

- لماذا لا تحترمين التسع سنوات التي تقف بيننا.. ثم أنكِ لم تري جناني على كل.

خطفها مصطفى بطريقته، فلم تنتبه أنهما ظلا يتحدثان قرابة الساعتين، إلا عندما دخلت عليها ثريا تقول:

- أما زلتِ مستيقظة يا ندى لهذا الوقت، ليست عادتكِ، أكل شيء بخير؟

لاحظت الجدة أنها ممسكة بالهاتف لم تنه مكالمة فيه، لم تحاول لومها على أنها لم تخرج للعشاء كما وعدتها منذ ساعتين مضتا، غير أنها لمّحت لها أنها مستاءة من تصرفها وهي تشير بنظرها إلى التلفون، فقالت قبل أن تُخرجها:

- تأخر الوقت يا ندى لعلك تدركين ذلك..

صَبَّحَكِ اللهُ بالخير يا بنتي.

وأغلقت ثريا الباب وخرجت..

أدركت ندى أنها صارت تحت ميكروسكوب الجدة من اللحظة التي دخلت عليها، فلم يكن منطقيا أن تكمل المكالمة..

- مصطفى آسفة لن أستطيع الكلام أكثر من ذلك، ولا أعرف حقيقي كيف سرقتنا الوقت إلى الآن.

- الأرواح تتلاقى يا ندى وما زلت متحمسا لأكثر، هل تعيشين مع أمك؟

- إنها جدتي، كل أهلي بعد يُتمي، وأنت؟

زادت الساعات اثنتين أخريين، وندى تسرقها نداهة مصطفى ويتسامران عن حياتهما بسلاسة مربية، تفاصيله اليومية وحياته المزدحمة التي لا تشبه عادية حياة ندى، أثارت فضولها أكثر، وهي التي ادعت غير ذلك أول المكالمة، ومن حماسها لمعرفته أكثر، لم تلق بالا لقصة طلاقه وأطفاله الثلاثة الذين أخبرها عن أعمارهم ومدى تعلقه بهم في منتصف كلامه دون الوقوف على تفاصيل، واهمة نفسها أنها لن تتورط في أكثر من مجرد حديث ليلة وستنقضي.. وما حدث غير ذلك.. كان للمكالمة أن تنتهي فعلا، قبل أن يعيد على مسامعها أن ما بدأ لتوه سيستمر..

- سأتركك تنامين الآن وأراك بعد ساعات.

ولأنها لم تعد قادرة على الصمود أكثر من ذلك مستيقظة، لم ترد على كلامه وأنهت أطول مكالمة في حياتها تقريبًا. أطول حتى من كلامها مع محمود، يبدو أنها تفعل كل شيء للمرة الأولى في حياتها هنا على «تيندر»..

نامت لا تشعر بأي شيء أبدًا.. سوى تنمية في يدها من مسكتها للهاتف أكثر من أربع ساعات متواصلة.

في الصباح، استيقظت فجأة على صوت الجدة تنادي بصوت غاضب:

- «ندى خامس مرة أدخل أصحكي وتقولي قايمة، عرفيني لو مش رايحة شغلك أنا أولى بصوتي وصحتي.. حرام عليك يا بنتي!»!

يزعجها عدم التفاهم الذي صار بينهما مؤخرًا.. على عجلة من أمرها ترتدي ملابسها ثم تدخل الحمام، تعكس الأدوار فتغسل وجهها وتتوضأ بعد اللبس وتغسل أسنانها سريعًا وتلف الحجاب بطريقة أسرع غير مهندمة.. تشعر بصداع يبطئ حركتها قليلا، تهدأ لتتذكر ما حدث وكيف أنها سهرت تحدث رجلا غربيا للفجر، وجدت الجدة تقف فجأة أمام غرفتها توبخها برفق:

- «أنا زعلانة يا ندى ولما تيجي لينا كلام، عملت ليكي فطار تاكليه في مكتبك، وخايفة تبطلي تفطري معًايا».

قبّلتها ندى في صمت وأومأت برأسها أنها ستفعل.. نزلت شاردة يشاركها صداع غريب من قلة النوم..

في الساعة الثالثة عصرا، يرن هاتفها معلنا اسمه، ترتبك ندى فلا ترد من أول مرة، تحاول استجماع كل المعلومات التي حصلت عليها في سهرة

الأمس، يعاود الاتصال، فتردد..

- ثلاث مرات لتردي، أمامي عشر دقائق وسأكون قريبًا من الجامعة، أين يمكنني أن أنتظرك؟

- لا أصدق أنك ستفعل ذلك.

- بصراحة لم أفعل ذلك مخصوصا، دعينا نتفق أننا نترك بعض الأمور في حياتنا للصدف، فلما وجدتني قريبًا من مكانك بالصباح، تأكد لي إحساسي أنه يمكنني رؤيتك.. ها، أمامك كم من الوقت؟

- تتركني كثيرًا بتصرفاتك.. لا أعرف ماذا أفعل الآن؟

- ندى.. ركنت العربية عند آخر سور الجامعة، انزلي وكلميني..

لم تصدق ندى أنه حينما أخبرها بالأمس أنه سيشرب معها القهوة أن ذلك سيحدث، ولم تصدق أنها في اليوم الذي ارتدت فيه ملابس الأمس، التي لم تكوها مجددا حتى، وطرحه غير محكمة اللف، أنها ستقابل رجلا ترغب من داخلها في مقابلته مهما ادعت غير ذلك، ودون نقطة «ميكب» واحدة.. دخلت الحمام سريعًا ونظرت لنفسها تحاول إصلاح أي شيء، تأملت هيئتها تلف يمينًا ويسارًا عليها تستشعر أنيقة عاجلة، بنطالها الجينز الواسع وبلوزة كتان أخضر فاتح، وطرحه بيضاء بلا أية تفاصيل تزينها، طقم أقل من عادي ليوم غير عادي.. قرصت خدودها لافتعال أحمر خدود طبيعي دون ماكياج، ونزلت قبل أن تغير رأيها..

على الطريق وهي تمشي بالقرب من سور الجامعة، لمحت عربته الحمراء الفارحة البي أم دابليو حسبما أخبرها بنوعها في آخر مكالمة من دقائق لتعرف مكانه.. تذكرت حالًا أنها المرة الأولى التي سيرها، فهي لا تضع صورة على برنامج الواتساب حتى، على الأقل هي أعجبت بصوره، أما هو، فستكتشف ذلك الآن!

في اللحظة التي رآته يفتح لها سيارته لتركب، نسيت كل شيء، نسيت الشارع والناس وأنها المرة الأولى التي تركب مع رجل تعرفت إليه منذ ساعات فقط، حتى الجدة، نسيت أن تخبرها أي شيء، وأنها المرة الأولى أيضًا التي ستضطر فيها للكذب.. أو إخفاء بعض التفاصيل..

لكي يكسر مصطفى حاجز اللحظات الأولى، خفف من توترها بتعليقه على طرحتها - أكثر شيء لم تكن تحبه اليوم- أنها ملائكية تشبه ملامحها.

انطلق مصطفى بالسيارة دون وجهة محددة، وانطلقت ندى معه في رحلة لا تعلم عنها شيئاً سوى أنها في حضرة رجل أربعيني يُعجبها.

وسرعان ما نجح في إذابة الجليد بينهما بكلامه المتلاحق الذي لم يتوقف لحظة. جلسا في كافيه بمصر الجديدة، يشرب القهوة وتشرّب مشروب الشيكولاتة الساخن الذي تُحب، نظر لها فجأة يقول:

- بريئة أنتِ يا ندى حتى في اختيارك لمشروبك..

- وما علاقة البراءة بحبي للشيكولاتة؟

- اختياراتنا تفضح شخصيتنا وتعقيدهاتها أحياناً، وأنتِ ببساطة هذا المشروب الحميمي، تماما كما أخبرتك بالأمس في كلامنا تشبهين الشتاء.

- أحب الشتاء وأحب البساطة.

- كلبسك أيضاً؟

- انتقاد هذا أم مجرد تعليق؟

- مجرد تعليق، لكنني لا أتخيلك بما هو لافت عن ذلك.

- ولم ألفت انتباهك من الأساس؟

يبتسم في وقار جذاب ويقترّب منها أكثر فيزيدها ذلك ارتباكاً:

- لم أكن أتكلم عن نفسي، ولكن لنفترض، أتحبين لفت انتباهي؟

تخجل من سؤاله فتلمس طرحتها مرارا كالتّي تتأكد من وجودها في مكانها وترد عليه بصوت قوي:

- لا يهمني لفت انتباه أحد.

- يمكن.. لكنني وقعت أسير صوتك منذ الأمس، ولا أستبعد ما هو أكثر، ألا يهملك هذا حتى؟

- دعنا من هذا الحديث، حدثني عن مشروع كتبك ونشرها.

- تزدادين جمالا يا ندى حين ترتبكين، والحقيقة أخشى عليك التورط في حبي.

- أنت فعلا مغرور جدًا، ما بك يا مصطفى، ولم سأحبك؟ إننا فقط نتعرف إلى بعضنا البعض، ولا تعجبنى نوعية الرجال أمثالك على كل حال، اطمئن.

- هاهاها، نوعية مرة واحدة.. سأقنع نفسي بأنك تقولين الحقيقة مؤقتًا.

قال لها ذلك وهو يمسح بعض قطرات الشيكولاتة التي سقطت على أطراف الكوب الذي لم تتركه من يدها.. فتعمد لمسّها.

كانت لديه طريقته الخاصة في الكلام المنمق والمعاملة الناعمة، ما يجعلهما يتحدثان كلاعبين تنس، يضرب كل منهما الكرة ليردها الآخر أقوى.. انتبهت فجأة لصوت الهاتف الذي كان يرن لفترة بصوت غير مسموع.. ثريا تطمئن على سبب تأخيرها.. تخبرها وهي تقوم من المكان، أنها قابلت منار في المنيل وستأخر قليلا.. تعمدت قول ذلك بعيدا عنه، كي لا يعرف عنها الكذب من لقاءهما الأول، ولم يكن ليلومها أحد على كذبتها، من سيوافقها على لقاء غريب بعد ساعات من مكالمة عابرة! لكنها ندى فقط تجرب في الحياة بمفردها، بل وتضطر للكذب بسهولة من أجل ذلك، وهي التي لم تفعل ذلك من قبل، خصوصا مع ثريا..

تتذكر ندى ما حدث مع محمود وكيف أنهما أخذوا وقتًا طويلاً للتعارف والكلام كثيرًا على شات الانستجرام لأسابيع قبل أول مكالمة تليفون، وتقارن كيف جاءت الجراءة الآن التي جعلتها تجلس مع مصطفى على منضدة واحدة بعد ساعات من حديثهما.. كيف تعطي فرصة لرجل آخر سريعًا هكذا من الأساس؟! كانت تحدث نفسها بذلك قبل العودة إليه..

أخبرته أن عليها الانصراف متحججة بقلق الجدة عليها، فيستجيب لها ويطلب الحساب منصرفين.

سيل من الأسئلة يزاحم رأس ندى وهما في طريقهما للسيارة، لا تشغلها الإجابة عليها بقدر ما يحيرها انسياقها وراء اللحظة، تقطع حيرتها فجأة لمسته لكتفها كأنهما صارا قريبين جدًا، يقول لها وهي تنتفض تحاول البعد قليلا:

- في الصباح سأذهب لمشوار يزعجني قليلا، مدرسة أولادي، أَدفع لهم المصاريف وأنهى بعض المشكلات، فهل يضايقك لو كنت ونيسي في هذا المشوار الثقيل؟ مؤكد ستقللين من سخافته، وأعدك أن أعزمك بعدها على ما تحبين، تعويضًا للطفك معي إن قبلت.. ها، موافقة؟

مقابلة أخرى وغدا؟! الأمر يتطور سريعًا، ترد وهي تعدل جلستها في السيارة:

- أأكون غير لطيفة إن رفضت إذن؟

- لطفك واقع لا محال يا ندى منذ عرفتك، والألطف أنك تفعلين ما تشعرين به بسجية تبهرني.

بابتسامة خجلة قالت:

- لا أعرف يا مصطفى كيف سأفعل ذلك ومواعيد عملي لن تسمح وماذا سأقول لثريا؟

- ندى كوني أكثر مرونة ولا تضيعي لحظات قد تسعدك آجلاً أو عاجلاً، إجازة ربما؟

- دعني أفكر في الأمر..

- لو وافقت سأمر عليك تحت بيتك، ونمضي اليوم كله معًا. ما رأيك؟

- لو حصل.. آخري ٥ مساء.

- أمرك يا سندريلا العصري، اتفقنا.

ضحكا معًا ومضيا يكملان دردشة لم تتوقف ثانية..

عادت ندى للمنزل تتجنب الحديث مع الجدة، إن أول ما نقع فيه عند الشعور بالارتباك من تصرف يُججلنا، تحاشي النظر في عيون من نحب.. وثرى كل الحبايب، كانت ندى تشعر أنها ترتكب خطأ ما، ولكنها واقعة أسيرة متعة التجربة مع شخص أربعيني جذاب كمصطفى.. أنيق الملبس والحياة والكلام أيضًا.

لكن طريقة مصطفى رغم ذلك كانت تُحدث أثرًا غير مريح لندی كلما خاضا في تفاصيل أكثر عن الحياة، قال لها مرة إن عليها تجربة كل ما تفكر فيه مهما كانت استحالتة، فلطالما كان الأهم حسب قناعاته أن تستمتع بلذة التجربة لأنها ستعيش الحياة مرة واحدة..

في هذه الليلة بعد مقابلتها معه وكذبتها على ثريا، ادعت التعب والحاجة إلى النوم ودخلت غرفتها ولم تحك مع الجدة في أي شيء كما كانت تفعل.. حتى لو كانت جملة تشاركها مع بائعة الخضار على أول الشارع..

وهي تغلق الباب عليها سمعت الجدة تدعي بصوت مسموع:

«ربنا يكفيكي شر المستخبي يا بنتي».

وكانت تعرف أنه سيأتيها صوته في المساء ولكن ليس الثالثة صباحًا.. كأنه المستخبي بعينه.. أفاقها صوت الهاتف من نومها وردت بسرعة..

- اتفقنا أن صوتك حلو في الأساس، لكن لم نتفق أنه أكثر دفئا عند استيقاظك من النوم..

- عدنا للمراوغة من جديد، كم الساعة الآن؟

- لا يهم تخطينا منتصف الليل على الأقل، أكنتِ تصدقيني القول فعلا يا ندى بأنك لم تدخلي علاقة حب واحدة في حياتك، واحدة فقط ولو حتى من طرف واحد؟!

- بصرف النظر أنها الثالثة صباحًا، ولا أصدق توقيت السؤال، ولكن أيناسبك أن أحلف لك مثلا كنوع من التوكيد اللفظي، غير أنني لن أفعل على كل حال.. ولكن للأمانة على ذكر علاقة حب من طرف واحد، أحببت منذ سنوات شاروخان من طرف واحد وما زلت أراه فتى أحلامي الوسيم..

يسود الصمت المكالمة، مساحة فرضها مصطفى عن قصد، صياد ماهر ينتظر وقوع بعض من الفضفضة في شبابه.

كانت تعلم أن السكوت إعلان خفي لرغبة أحدهم في الكلام..

فلم يمل صمتها، واثقًا أنها ستفعل الآن ما يريد من نفسها، واستجابت ندى وبدأت تحكي عن محمود، صحيح لم يكن قصتها الأهم على الإطلاق، ولكنه

كان خذلانها الأول ربما.. بعد خالد حب الثانوية العامة التعتيس..

بعدها حكمت طلبت منه ألا يكرر خيبتها وألا يفقدها إيمانها بحسن النوايا..
ووعدها ألا يفعل.. وعلى سجيتها كانت تحب أن تصدق الوعود..

مصطفى كان مستمعاً جيداً جداً، يصدر بعض الهمهمات وهو يسمع دليل إنصاته، لا يقاطعها أبداً، أحببت ندى طريقته، لكنه كان حذرا إن تحدث هو، يخرج الكلمة وهو يعرف موضعها وأثرها.. صوته دافئ يهمس به أحياناً، رصين جذاب إن تحدث بجدية عن حياته أو حياة ندى.. أعطاه كل الوقت لتحكى علي راحتها، حتى أخبرها بصوته الهامس ضرورة أن تستريح سويعات قليلة قبل أن يمر عليها الثامنة صباحاً.

تأخذ نفساً عميقاً وتشكره أنه هنا معها.. وتغلق الهاتف مبتسمة..

تستيقظ ندى بمفردها قبل الجدة، تمشي على أطرافها كي لا تشعرها بشيء، هي ليست مستعدة على الإطلاق لأي صباحات جدالية في يوم تشعر أنه سيكون مميزاً..

أمام دولابها القديم الذي لم تغيره ثرياً منذ وفاة أمها واحتفظت لها به، شاهداً على كل التفاصيل التي سمعت عنها فقط، مكتفية بأنه يحمل إليها كل يوم رائحة الحبايب، تقف حائرة بين صفوف ملابسها التي لم تركز يوماً في بهتان ألوانها.. فعلى الرغم أنها تحب الألوان فإنها لم تقتن يوماً ألواناً صارخة واضحة، تماماً كحياتها، لكنها اليوم في حاجة لأن تبرز جانبها الأنثوي الذي لم تجرؤ على إظهاره من قبل، لا مع محمود ولا غيره.. فقررت أن تصنع من الألوان تفاصيل مبهجة تليق بيوم هي في مزاج جيد له.. ارتدت فستاناً من الشيفون «الأوف وايت» وعليه جاكيت ذو ملمس قطني ناعم لونه أخضر زيتي. وعلى خصرها لفت حزاماً رفيعاً باللون الجملي يظهر مفاتها برقاً.. أما الطرحة فكانت بألوان الزهور وخضرة قلبها.. وتركتها تنسدل بانسيابية على كتفها، تلف كالبلايرينا أمام مرآتها الطولية الساكنة إلى جانب الدولاب العتيق، وتضع بعضاً من لمسات الماكياج التي لا تزيد إلا إشراقاً ومظهراً أنيقاً طبيعياً أيضاً..

ندى اليوم تشعر أنها أنثى مدللة.. لا أحد بخفة روحها في تلك اللحظة.. أخذت شنطة مناسبة مع لون الحزام الجملي.. رن هاتفها معلناً وصوله تحت البيت.. وقبل أن تنزل مسرعة، لم تنس أن بالبيت قلباً بات ينام قلقاً عليها كل يوم.. تركت لها رسالة مبهمة أنها نزلت مبكراً لإنجاز بعض المهام خاصة بعملها في المكتبة..

كانت الساعة ٨ صباحًا، لسعتها نسمة برد خفيفة أحببتها، رمقته بطرف عينيها وهو ينتظرها خارج سيارته الحمراء الفارهة فاتحا سقفها اليوم، تمشي على استحياء بخطوات مسرعة إليه، تمد إليه يدها تسلم عليه ورعشة خفيفة فيها، وهي تقول:

- هل تأخرت عليك؟

لم ينزل بصره من عليها ثانية واحدة منذ لمحها تقترب، وما إن التقت يداهما، لم تشعر ندى باللحظة التي رفعها فجأة ليقبلها عند أصابعها.. في لحظة وقف فيها الزمن، سمعت ندى صوتا لضربات قلبها المتسارعة، لم تنطق بكلمة، سحبت فقط يدها سريعًا ووقفت مكانها مرتبكة، يشير لها لتركب فاتحًا لها الباب بنفسه كمشاهد الأفلام التي طالما أحببتها.. تدخل السيارة ولا صوت يعلو فوق صوت ضربات قلبها.. وفي أنفها رائحة عطره تنفذ إلى روحها سريعًا.. جلس إلى جوارها ينظر إليها مجددًا..

- «إزيك يا أميرتي؟».

بصوت مرتعش تحببه وهي تنظر أمامها:

- كنت بالأمس صغيرتك، ماذا حدث اليوم؟

- اليوم أنت جميلة جدًا كالأميرات، آسف صحيح لو ضايقتك تقبيلي ليدك. ما كان لي إلا أن أفعل..

وانطلقا دون كلمات أخرى، تحاول فقط استعادة هدونها نوعا ما..

قراءة الساعة، تنتظره في السيارة أمام مدرسة أولاده.. لا تعلم ماذا أتى بها إلى هنا، منقطة بعيدة بالقرب من مايو، منطقة جديدة لم تكن تتخيل زيارتها قبل وجودها على هذا البرنامج.

أثناء انتظارها له أخذت تتفحص سيارته الفارهة وتربطها بتفاصيل حياته التي حكى عنها، زواجه ثم طلاقه، عمله، دار النشر التي يمتلكها أبا عن جد، هل تُحقق له كل ذلك؟ لم تسمع أن مجال النشر مُربح لهذه الدرجة، ولماذا يُدخل أولاده مدرسة تجريبية كما هو مكتوب على اللافتة المعلقة أمامها؟ هل ينتقم من أمهم فيهم؟ وما دخلها بتلك التفاصيل؟ هل صارت جزءا منها منذ التقيا وتبادلا الحكايات؟ هل يفصح لها عن نية للارتباط؟ هل تريد هي ذلك أصلا؟ أسئلة سببت لها صُداعا مفاجئا من كثرتها، تفرُّك في رأسها من الألم،

درجة الحرارة تزداد عليها وقد اقترب وقت الظهيرة، تشعر ببعض قطرات العرق ضيقًا غير مرغوب فيه على الإطلاق، فتخرج من السيارة عليها تنعم بنسمات هواء عابرة تقطع شرودها المُرْبِك وتوقف صداها المززعج..

تراه يخرج من باب المدرسة مبتسما، فلا تعلم هل تدخل السيارة مجددا كما تركها، أم تظل مكانها كيفما وجدها الآن.. قررت أن تبقى، وإذ به واقفًا أمامها، مُقتربا أكثر، ممسكا بذراعيها بكلتا يديه في إحكامٍ دافئ، ممتن لانتظارها يقول:

- آسف حقيقي يا ندى لكل هذا التأخير.. من الآن الوقت كله لنا وسأعوضك هذا الانتظار الطويل.

لم تُحدث رد فعل أيضًا هذه المرة على مسكته تلك، غير أنها ظلت على هذا الوضع بعدما أنزل يديه، كأنها جُمِدت لتوها في تابوت ثلجي.. هكذا شعرت من لمسته المفاجئة، قالت له بوجه عبوس عليها تشعره بطريقته غير العادية لها:

- ولا يهملك، المهم أنك أنجزت ما جئت له..

- الأهم شعوري الآن أنني صرت أمام أحد أجمل إنجازاتي الجديدة.

بنظرات لائمة تعتدل في جلستها بعدما دخلت السيارة:

- كأنك تعتبرني مهمة مفروض عليك إنجازها مثلا؟!

- «لمضة» أنت يا ندى، تأخذين من كل جملة حربا، الحياة أبسط، أما لذلك انسجمنا؟! ولأنني أحب حتى محاولاتك البريئة في الجدال، سأخبرك نعم.. أنت لي إنجاز وددت لو أصبت في تحقيقه.. المهم دعك من هذا الجدال، اسمعي معي تلك الأغنية أحبها جدًا، ربما فيها أيضًا إجابة ترقى لك.

يفتح تليفونه ويوصله بـ «كاسيت» السيارة - فيسمعان «أصابتك عشق، أم رُميت بأسهم فما هذه إلا سجية مغرم، ألا فاسقني كاسات وغن لي بذكر سُليمي والكمان ونعم، أيا داعيا بذكر العامرية أنني أغار عليها من فم المتكلم، أغار عليها من ثيابها إذا لبستها فوق جسم منعم.. ليل يا ليل ليلي ليل يا ليل يا ليل..» يردد الأغنية وراءه حافظا كل كلمة كأنه يسمعها كل يوم، يتعمد النظر إليها في كل جملة ليزيد ربكتها ويرى خجلا لم يعهده منذ

زمن في فتاة ثلاثينة مثلها، تشيخ بنظرها خارج السيارة، فيمد يده ليعيد وجهها إليه مبتسما.

- ما رأيك، تعجبك؟

- حلوة، سمعتها من قبل مرة واحدة.

- ستألفينها وتعتادين سماعها معي أنا أحب عبد الرحمن محمد عامة، وكنت أحب تلك الأغنية بالتحديد، لكنني صرت أحبها أكثر منذ رأيتك فيها يا ندى.. منذ أصابني عشق لقياكِ مثلاً؟

لم ينتظر رد فعلها، قبل أن يسحب يدها اليسرى التي شبكتها مع الأخرى، ليلفها حول ذراعيه، يربط عليها، كأنها «تأنججه»، لم تسحبها ندى هذه المرة ولم تغضب، لكنها نظرت إليه مستفهمة مخضوضة، تحاول أن تتكلم فتلتعثم، يربت مرة أخرى على يدها ناظراً إلى عينيها مباشرة، نظرة خطفتها وأسكتتها، أكمل سواقته دون أن يترك يدها تفلت، ولم تفعل هي..

خبرات ندى المنعدمة تقريباً عن الرجال والعلاقات بشكل خاص، لم تجعلها تفهم حقيقة ما يفعله مصطفى، هل ما يفعله استغلال لبراءتها وسجيتها، أم أنه في حاجة بالفعل لشخص حنون مثلها؟

حسب روايته معها، فقد طاله ظلم كبير من أقرب الناس إليه، وأنه لم يشعر بتلك الراحة قبل أن يعرفها، حكى لها كذلك عن مراحل صعبة في حياته تخطى فيها أزمات كثيرة بمفرده، خرج منها شخصاً أقوى، أكثر حذراً في القرب من الآخرين، حتى أنه أبلغها بعضاً من أسرارهِ عن أسباب طلاقهِ وخروجه من أزمة إدمان كارثية كادت تودي بحياته، صار بعدها مُدرّباً متعافى في مركز خاص لعلاج الإدمان، يغير حياة آخرين ويغيرونه، فتعلم مهارات التأثير وأصبح ملماً بخبرات لم يكن يتخيلها عن نفسه بعد كل ما مر به.. حكى لها كل ذلك وأكثر بسهولة غير محسوبة.. السبب براءة ندى.. هكذا كان يُحدثها كثيراً عن لطفها وأنها القلب الذي أحب السكون إليه بعد مشقة سلبته متعة أن يشعر بالحب كما يحدث معه الآن في وجودها.. كان يزيد ثقته بنفسها بقصد ودون، غير أنه كان يتعمد إذابة كل الحواجز التي قد تبقىها بعيدة عنه، حتى لو تكبد الأمر تغيير بعض قناعات ندى.. ومنذ صاراً يتقابلان سرا.. فقد كسر بعضها بالفعل..

وتخطت قصة محمود!

ظل يقتحم ثغرات عقلها مرة بعد مرة، ومقابلة بعد أخرى، ينهل من حنانها ومشاعرها البكر، سنوات طويلة حفرتها ثريا في بئر وضعت فيها كل جميل وطيب وأصيل لندي، لم تظن أن يأتي أشخاص عابرون يدلون دلوهم فيه ويسحبون بتلك الغشومية، آخرهم مصطفى. الذي أدمنت ندى وجوده دون أن تدري..

الأشخاص الطبيعيون لا ندمنهم، فلإدمان أعراض انسحاب مؤذية وعرض وطلب لا ينتهيان إلا بمصائب، لكننا نستأنس بأمان وجودهم المريح، نجدهم في كل مكان، فهم لا يهددون أبدًا بالرحيل ولا بنفاد رصيد محبتهم، عكس ما يفعل «الديلر» مع المدمن، إن استعصى عليه الدفع يومًا.. فيتركه للألم أو الموت.

تتمشى ندى على النيل بعد عودتها من العمل، تحكي مع منار في التليفون عما تركه مصطفى من أثر فيها، وعن مخاوفها أيضًا، تحدثها بخجل عن ذلك اليوم الذي لمس وجهها، بعدما قالت له كيف أنها لا تشعر بأهمية لوجودها، فرد عليها مقتربا منها أكثر يلمس وجهها ويخبرها بصوت هامس:

- لم آت لأعطيك شيئًا يا ندى، بل أتيت لأخرج جمالا لم تعرفي أنه موجود فيك.

يومها بعدت قليلا وهي تزيح يده وتخبره بذكاء مقصود أنها تحب أيضًا أقوال جلال الدين الرومي، لتعلمه أن كلامه المعسول ليس ملكه وحده.

قالت لمنار أنها ما زالت قوية وصامدة وأنها لن تسمح لا لمصطفى ولا لغيره أن يغيروا ما تَرَبَّت عليه.. وكانت تعرف أنها تكذب.

تعنفها منار على ما تحكيه، مستعجبة عدم وقوفها على قصة أنه رجل مُطلق في الأساس وأنهما صارا يتقابلان سرا، وأنها لا تستحق قصصا مشوهة مثل قصته..

لكن المُخطئ لا يسمع اللوم في وقت الغشاوة! يُكابِر ويُبرر..

تعلقت به نعم. لم تر فيه إلا راحة عقله وخفة مشاعره التي يغدقها بها كثيرًا كلما تحدثا.. وهي التي حُرمت مثقال ذرة منها..

للمرة الأولى منذ زمن طويل تصطدم مع منار في الحديث عن شيء يخص مبادئها.. تسكت وتنتهي المكالمة في خجل وارتباك..

تعود بيتها وتكتب لـ «غريب» عما آلت إليه الحكاية وكيف شدتها شخصية هذا العابر الأربعيني.. وقبل أن تنهي خطابها كتبت له عن مفاجأة..

- «ورغم تعلقي هذا.. اطمئن، بالأمس يا «غريب» كان اليوم الأخير في علاقتي بمصطفى.. لا لم تكن القصة بتلك البساطة، إنما بمحادثة أشبه بالمصارعة، كنت أنهج أمامه والله وأنا أتكلم معه، الحوار كان مرهقا، حوار أراد أن ينتصر فيه للعقل وللمشاعر، وكنت أنتصر فيه أنا للفطرة يا غريب، نعم كدت أضعف لن أنكر، ولكن رأيت ثريا فجأة.. ورأيتك -وأنا التي لا أعرفك في الحقيقة- سوى صورة في الخيال وأنت تجلس أمامي في المكتبة بشعرك الكثيف وملامحك السمراء، ولا أعرف لماذا حدث ذلك.. رأيتك منكبا على كُتُبك التي لا تُفارقها، لكنك تركتها في تلك اللحظة وهدقت النظر في من بعيد، كالذي يهاب حدوث شيء مُفزع.. رأيتك يهْمُك أمري..

في ذلك اليوم الذي كانت فيه النهاية، كنت متروكة لسحره، بعد أيام كنا نسهر نتحدث فيها لساعات طويلة من الليل، تعلقت بحلو كلامه وتأثيره عليّ، في الحقيقة أعترف أنني كنت جائعة لأن يشبعني أحدهم بجمل عن أنني أجمل من كوني فتاة عادية.. ولم أكن لأرفض طلبات مقابلتني.. كانت المرة الرابعة التي نفعل فيها ذلك.. وصرت أجمل مما فات في عين نفسي، أهتم بها أكثر.. أصبحت أطيل التركيز في تفاصيل أناقتي، وكذلك النظر في المرأة كثيرا وفي ملامحي. أصبحت أضع «اللاينر» دائما في أغلب خروجاتي تخيل يا غريب؟!

لا ثقة «يا غريب» للمرأة أجمل من ثقة يعطيها لها حبيب حتى وإن كان وهما..

شرب قهوته في مكان يحبه وشربت الهوت الشوكلت كالعادة، وكانت رجله تقترب من رجلي كثيرا، أبعده فيقترب، ويدعي حدوث ذلك دون قصد، وأرتبك، فينظر لي بابتسامة خبيثة!

في طريق عودتنا، سألتني ونحن في سيارته هل أحب الطبخ، جاوبت ببراءة أنه سيعرف ذلك يوما ما، وأسهب في وصف بعض الأكلات التي تعلمتها من ثريا، قال لي يقاطعني:

- هل يضايقك إن أكلت من يدك مرة؟

بالبراءة نفسها أجابته: «إطلاقا»، وأنني ربما أصنع له في القريب طبقا مميزا وأحضره له، لكنه لاحقني بسؤال آخر مريب:

- وماذا إن كنا في مكان واحد وشاهدتك وأنتِ تفعلين ذلك؟

ولم أكن تعلمت سوء الظن بعد يا غريب، بسذاجة امرأة ربتها جدتها وبضعة كتب، رحبت بالفكرة على أنه مشهد رومانسي خيالي، وقلت له:

- «وددت لو حدث يومًا بيننا.. لعله قريب».

بعصبية فاجأني برده:

- يااه يا ندى لو كنتِ أسرعيت في الإجابة قليلا، كنا عند منزلي منذ ثوان فقط، لا بأس سألف مجددا وأعود!

لم أفهم ما قاله، وقلت وصوتي متقطع كمكالمة تليفون الشبكة فيها سيئة:

- نعود إلى أين يا مصطفى؟!

- إلى بيتي يا ندى، أليست تلك رغبتك أيضًا؟!

ضرب الدم في نافوخي، واحتفى بي صداد نصفي غيَّب عني الرؤية قليلا، قلت له:

- وماذا أفعل في بيتك يا مصطفى؟!

- لن نفعل أكثر مما حلمت به يا ندى منذ دقائق، تطبخين لي وأشاهدك تفعلين، وربما وددت لو ضممتك بحنية كل الأيام التي تمنيت أن ألقاك فيها، لكن اطمئني لن أفعل إلا برضاك!

- أقلت لي أنك أزهرى صحيح؟! وتنشر وتطبع الكتب الإسلامية؟ وحافظ لبعض سور كتاب الله، وكنا بالأمس نتحدث عن تفسير إحدى آياته وتحكي لي عن جهلي فيما فهمته عنها سنين طويلة، أم كنت أحلم؟ أم أنت شخص غبي آخر لا أعرفه؟! «في إيه يا مصطفى؟!».

- شخص غبي؟! الحقيقة أنكِ تلك الشكاكة الأغبي، سيئة الظن مثلك كغيرك، لا فرق بينك وبين أي بنت سطحية تافهة لم تمسك كتابا يومًا.

- وفي أي الكتب قرأت أنت أن دخول امرأة مع رجل في بيت بمفردهما، كان من أجل طبخة وعناق؟!

- في العقول السليمة يفكرون ذلك ولكنك تفكرين بشهوتك، وأنني يا حرام سأموت جوعاً لو لم ألمسك.

- شهوة!! أنا؟ من أنت، أريد أن...

- اصمتي قليلاً ودعك من كلام الإنشاء عن الفضيلة والدين والتربية وكل عبث ستقفوهين به، ملخصه بالنسبة لي أنك خيتي ظني بتفكيرك بهذا العقل المريض!

لم أدر بالوقت يا «غريب» الذي مر وهو يثرثر بكلام لم أكن أسمع أغلبه من شدة عصبية، بدت عروقه لي ظاهرة أوشكت على الانفجار، كنت أراقب انفعالات صماء، كأن بأذني قطعة قطن، كدت أجزم أن مصطفى في هذا المشهد يتحدث عنه قرين ملعون، وفجأة أفاقني صوته يطلب مني النزول من السيارة ورغبته في أن يكون بمفرده، ركن سيارته فعلاً بالقرب من محطة مترو عمرة، نظرت إليه مذهولة:

- أحقا تفعل ذلك، أمقتع أن ذلك يحدث بيننا؟

- ندى أنتِ للأسف تعرفين فقط قشور دينك ولم تقتربي من بواطنه أبداً، ومن فضلك أنا في حل الآن من مناقشة ذلك.. فقط اتركيني بمفردي وربما تتكلم لاحقاً..

- بواطنه أن يجتمع رجل وامرأة وثالتهما طبخة حلوة أم ماذا يا مصطفى؟ حقا لا أفهم ماذا يجري الآن، كنت أظن أن الكلام بيننا عن التخيل وعما أحب أن يحدث لو جمعت بيننا الظروف يوماً، عند فرضية الزواج مثلاً..

- مثلهم يا ندى، رأيت؟ أكل غايتك الزواج؟ الزواج ليس هدفاً لي، على الأقل ليس الآن، الحياة وحلوها، وأن نختبر روحنا فيها هو الهدف الأبقى، وأن نكمل تلك الصورة بعقود وورق فهو وسيلة لا أكثر.. أنتِ حتى رفضت أن نعيش مشاعرنا كما هي، دون حدوث ما يُخيفك مني، لأنني ببساطة أنضج وأعقل من ذلك يا ندى..

- وهل سأنتظر لأن يحدث ما هو أبعد من ذلك؟ ولماذا أختبر إيماني ومبادئتي أصلاً؟ أترك نفسي لضعفها وأخبرها اطمئني فمصطفى أنضج وأعقل من أن تسيطر عليه رغبة شهوانية خبيثة، في لحظة نعرف جيداً أنه لا يجمعنا فيها إلا الشيطان، أهذا ما تتوقعه مني؟

- أتقولين على لحظة حب بيننا لحظة شيطان؟! أرجوك كفي عن الكلام..

- يا سوادِ يومي، أناقش فعلا موضوعا يتناقشه مراهقو الثانوية حينما يقنع واحد منهم صاحبتة بالزواج العرفي مثلا؟! أيكتبنا الله يومها من الأبرار الصديقين مثلا حيث جمعتنا لحظة حب صادقة صاحبها اسمه مصطفى! أتحمل عني الذنب؟ أتعرف كلمة الزنى أصلا؟ لا أصدق أننا تناقش ذلك.

نوبة غاضبة جديدة تملكته يا غريب بعد جملتي الأخيرة، كانت أشبه بالصرع، يتذكر مشاهد عبثية في حياته القديمة، ذاكرا فيها زوجته وكلاما عن خيانة ونقاب وأولاد يراقبون، وتفاصيل كانت أكبر من أن أستوعب وجودها في هذا الحديث، طال البرد كل أطرافي وتمنيت لو أن تبتلعني الأرض وقتها، لم أطق صوته العالي، ولم أفهم له مبررا، غير أنه لم يحدث وأن صرخ بي أحدهم من قبل يا غريب.. وقد فعلها هو للمرة الأولى في حياتي.. وعلى الرغم من غرابة الموقف، حاولت امتصاص واحتواء غضبه ومددت يدي أربت على كتفه، ففاجأني وبكى كالأطفال، وبصوت نحيب عالٍ طلب مني النزول، وفعلت.

مرت ٥ أيام كاملة، لم نتكلم، ولهذا اعتبرت القصة قد انتهت، ولكنني رغم ذلك حاولت معه مجددا بالأمس وبسرعةٍ متهورةٍ لم أفكر ثانية واحدة قبل أن أمسك بهاتفني وأتصل به، ورد هو أسرع مما كنت أتوقع:

- كيف حالك الآن يا مصطفى؟

- دائما بخير يا ندي.

- كنت قلقة عليك وأظنك لم تكن في وعيك يومها.

- لم أكن مخمورا لأفقد وعيي.. فأنا كما أنا.

- تحدثني بنبرة قاسية لم أعهد لها فيك.

- سئمت ضعفي إليك ولم تعد روحك شفافة كما ألفتها للمرة الأولى.

- لماذا كل هذا يا مصطفى؟

- ما فعلته كان سببا كافيا.. ما زلت طفلة، ولسن بحاجة إلى أطفال مع أولادي.. هل عندك استعداد لأن تُدلي نفسك، وتستمعي لها ولما تُحبه معي

دون قيود؟

فكري ثانية قبل النطق..

تعلمي تلك المهارة أرجوك..

- أستمتع دون حلال وحرام؟!

- تستمتعين فقط، لأننا بشر، نخطئ ونصيب، ونستغفر، ونعود لنخطئ ونتوب ويحبنا الله لذلك.

- وهل يُحبنا الله لأننا نستهيئ بمسامحته؟

- ندى.. لم أعد أحب جدّك العقيم..

بالمناسبة الرجال تضيق سريعًا لهذا.

- أهكذا تنهي مكالمتك؟

- سألتك ولم تجيبي، بل تجادلين..

- أصبحت تُخيفني جدًّا.

- إذن ارحلي فورًا.. فقد أكون الشيطان الذي جاء ليدنس طهارة ثوبك.

قالت بيأس ممزوج بمرارة:

- ولكنني أحببت تفاصيل كثيرة بيننا.

- وأنا أحببتُ فيك ما هو أكثر.. أحببتك.

- وتبعدني؟!

- رفضتيني مرة ولا حاجة لي بأخرى.

ندى اسمعي مني الآن، لا تتغيري من أجل أحد، حتى ولو كان أنا.. فأنتِ ستراضيني مرة وثلاثا وفي الخامسة ستندمين، لأنك ما عدت ندى التي كنت تحبينها في نفسك.

- رفضتُ منك فكرة ومبدأ واحدا فقط.. ولدينا أشياء أخرى كثيرة نتفق فيها.

- الفكرة أنك تلجمين روحيّ معي.. ولا أحب اللجام.

- أترحلّ؟

- أرجوك.. ارحلي ولا تعودي..

فعلمت هنا يا غريب أن القصة بالفعل انتهت».

لم تصدق ندى يومها أنه أغلق الهاتف في وجهها.. ولم تصدق حتى بعدما أعادت محاولة الاتصال عشرات المرات، فصار يقطع اتصالها في كل مرة، ثم فاجأها وأصبحت مكالماتها محظورة.. فصدقت أخيراً أن القصة إلى هنا قد انتهت، وأنها انكسرت للمرة الثانية من هذا «المخروب» كما تُطلق عليه ثريا. دَوَّنت ما حدث معها لغريب في دفترها وإن خيمَّ الألم على الحروف والكلمات التي كتبتها، ثم دخلت إلى ثريا في غرفتها وكانت تستعد للنوم، إلا أنّها فاجأتها بطلبٍ غريب، وبدت غرابته واضحة أكثر في صوتها المختنق بالدموع:

- ستو.. احصيني..

وألقت بنفسها بين ذراعي جدتها، وانتفضت بشدة في حضنها وهي تتنفس بصعوبة قبل أن تكمل حديثها قائلة:

- لدي الكثير أخفيته عنك في الأيام الأخيرة، وأرجو أن تسامحيني، أخطأت مجدداً في حق نفسي، كنت أردد لنفسي تلك الجملة السخيفة «أنا عارفة بعمل إيه كويس»، وفي الحقيقة لو كنت أعلم ما أفعله.. ما حل بي الأذى أبداً.

حذرتني، وكنت بلهاء غشيمة عندما أحكمت إغلاق كل منافذ عقلي، فتوقفت عن استقبال إشارات بوجود خطر هنا.. كل شيء كان يبدو هادئاً قبل اندفاعي بضرورة التجربة.. وحدك حذرتني، ووحدني أقف منهكة منكسرة أمام نفسي وخسارتها من روح وطاقاة ومشاعر.. في الحقيقة لا أمان إلا في حضنك يا جدتي فضمني أكثر أرجوك.

بكت كثيراً في حجرها، فمسحت جدتها على رأسها وهي تهدهدها كالأطفال:

- رفقا بنفسك حبيتي، أراك اقتربت من الطريق، في الوقت الذي تفلتين فيه أمنيته التي ظننت أنها أمانك ونجاتك.. وصنعت منها حبلا تزينتي به في يدك، فترك آثاره الموجهة في معصمك. ستدركين حماقة تمسكك؛ حينما يبدل الله لك تلك الأمنية بأخرى أجمل.. إننا لا ندرك أمنياتنا وحاجاتنا الحقيقية ونحن غارقون في التفكير.. ولكن يلهمنا القدر اختبار أجملها حين نتوب عنها.. نعم لا تستغربي كلامي.. فالتفكير أحياناً ذنب.. التوبة عنه اختيار مرهق، فتوبي يا حبيتي. الموضوع يستحق.. كفي عن البحث.. نصيبك سيصيبك يا قلب جدتك.. ومهما قابلت من أشخاص سيئين سيظل الكون في حاجة لأمثالك ليتوازن.. وفطرتك السليمة ستغلب ولو بعد حين.

ما رأيك بعد كل تلك «الشحنة» في ساندوتش جينة رومي وكوب شاي باللبن في البلكونة تحكي لي ما حدث على هذا المخروب..

ابتسمت ندى والدموع لا تزال تتلألأ في عينيها وهي تقول:

-«عرفتي مينين إني بقيت مسمياه مخروب زيك؟»-

قبلتها ندى وهي تمسح دموعها تعلن موافقتها على فكرة الساندوتش.. وسارا معاً للمطبخ تعدان عشوة دافئة تخفف ثقل قلبها..

-ع-

إبراهيم

(دعينا نتزوج ونبل الشربات).

مسحت التطبيق من هاتفها بعدما حاولت إعادة الهدوء لحياتها التي كانت عليها، مَرَّ شهر تقريباً ولم تحن للحديث عليه مُجدِّداً.. إلى أن لمحت شخصاً يشبه محمود، مر إلى جوارها في الجامعة.. وهنا لعب الفضول لعبته المحببة في أن يدفعها للبحث عنه من جديد.

في بحثها انتصرت لكرامتها، وفضلت ألا ترسل له بعدما تذكرت خيالات ما فعل، لكنها ومع ذلك رضخت لمحاولات الفضول الشيطانية في أن تعيد تحميل التطبيق، بحجة أنها الآن صارت أقوى وصارت تفهم العابرين هناك على حقيقتهم، وأنها لن تُخدع مرة أخرى.. الموضوع ليس إلا أنها افتقدت تلك الحالة، التي كانت تنتظر فيها رسالة أحدهم كل صباح.. يقتلنا الفراغ بدمٍ بارد إن لم تشغلنا مساعي الحياة الأخرى..

في اليوم الأول من إعادة تحميلها للبرنامج أحست بنشوة الرجوع، تلك التي تملكنا حينما نمسك بشيء أدمناه لفترات.. كأول علبة بيبسي بعد شهر من محاولات التوقف عن إدمانه، أو نشوة أول واحدة بطاطس من وجبة ماكدونالدز وأنت تأكلها بعد جوع ساعات طويلة.. أو حرمان شهر في سعيك للتعود على الأكل الصحي.. هكذا شعرت حينما بدأت في تصفح صورهم، وهدفها الواهي أنها صارت أوعى في اختيار من تقرر التحدث إليهم.. في غضون ساعات من العودة، حصلت على أول «match» ولم يعجبها في الشخص المختار صورته الرصينة ولا كل الكلام الذي كتب ولا اسمه الذي هو اسم والدها «إبراهيم»، بقدر جملة واحدة فقط لفتت انتباهها وسط مقدمة أسهب فيها عن نفسه وهو يشرح حاجته لعروسة بنت حلال، كتب: «بالمناسبة أنا حفيد توفيق الحكيم»، جملة كانت ترضي فضولها مؤقتًا لأن تحدثه.. وأشار في جملة أخرى إلى حفظه للقرآن الكريم.. سألت نفسها وهي تنتظره ليبدأ، ماذا يفعل حفيد الحكيم حافظ القرآن في هذا المكان؟

بعد ساعاتٍ بدأ كلامه معها، بتحية «السلام عليكم».

قبل أن ترد قالت لنفسها:

«الخوف لو ظن أنني أبحث أنا الأخرى عن عريس لمجرد موافقتي على الحديث معه، لا بد نفي هذا عن نفسي سريعًا».

- أهلا إبراهيم، إزيك؟

- إزيك يا ندى حديثني عن نفسك وصفاتك التي تحبين فيها؟

- ما تلك المباشرة في الحوار، وكيل نيابة ولا صحفي ولا «إتش آر» تجري معي مقابلة لشركتك مثلا؟

- لا أبدًا، ولا أي واحد منهم، مهندس كما قرأت في بروفايلي، لكنني عملي بعض الشيء، وأعلم جيدا احتياجاتي.

- وما علاقة احتياجاتك بالمكان هنا، وهو كما بدا لي لا يليق بالبحث عن شريك للحياة، فالكل هنا متخفٍ وراء قناع لا يشبه واقعه..

- وماذا تفعلين أنتِ فيه إن لم تكن وجهتك نفس وجهتي؟

- لا أحب الإجابة على السؤال بآخر.

- تمام.. كل ما هنالك أنني أحسن الظن في أغلب الأحيان، مع علمي بأن المكان هنا كغيره من الأماكن، فيه الحلو وكذلك السيئ، وعلينا أن نحسن الاختيار.. وطني وبنيتي خير، أبحث عن زوجة، فوضوح من البداية يقصر الطريق على من أتحدث معهم.

- أيعني هذا أن هناك اختيارات خذلتها صراحتك؟

- لن أنكر وجود فتيات تبحث عن التسلية، ذهلت من وجود متزوجات في الحقيقة..

- عرفت ذلك من حكايات البعض للأسف.. كذهولي نفسه من رجال متزوجين يرغبون في التعارف من باب التجديد والهروب من ملل حياتهم حسب وصفهم. وآخرين اضطروا للاعتراف لاحقاً أنهم متزوجون لما أحسوا بخطر التعود..

- يبدو أنكِ تحدثت مع الكثيرين هنا.

- ليس بالصورة التي تتخيلها، ولكن كثيرًا بالقدر الذي يكفيني لأعرف الموجودين هنا.

- وماذا كنتِ تبحثين فيهم؟

- أبحث عني.

- تجيدين فنون الحوار يا ندى.

- أبدًا، أحب المحادثات فقط وأحب القراءة، وطني أن المحادثات جزء منها.. صحيح ما حكاية أنك حفيد توفيق الحكيم؟

- نعم أنا حفيده، كان من أقارب جدي.. غير أنني أعتبر نفسي حفيده بالحب وليس بقراية الدم فقط. تماما كما نسمي أنفسنا أحفاد الفراعنة..

- ثواني ثواني.. أي قرابة دم تحدثني وهو أحد أقارب جدك، يعني ممكن يكون ابن عم خال غريمه مثلا.. أضحكنتي والله، أنت نصاب يا إبراهيم..

- دون سخرية، المحبة لها نفس شعور القرابة والنسب.. وحيي له لا يوصف وقرأت له كل أعماله تقريبًا؛ قصر المسحور، وعودة الروح، وعصفور من

الشرق، وليفة الزفاف، وبوميات نائب في الأرياف، والرباط المقدس، وعصا الحكيم. ومسرحياته أيضًا..

- وأنا ما لي يا إبراهيم بما قرأته.. أنت استخدمت اسمه كذبا.. ألا تسمي هذا خداعا فعلا؟! أتعجب من منطلقك الحقيقة..

- دعي العجب الآن.. تزوجت من قبل؟

- ما شاء الله وتجد القفز من موضوع لآخر في ثانية.. تمام وهل ستحدد الإجابة حياتك مثلا؟ أو ستقرر بها استكمال كلامك معي من عدمه؟

- أبدأ.. فقط من باب العلم بالشيء.. وليكن في معلومك إن شعرت بالود تجاهك.. فلا مانع لدي لأن أطلب يدك حتى وإن سبق لك الزواج.. فلست بعقلية الرجل الذي يرفض الزواج من مطلقة أو أرملة..

- فعلا!! وما هي يا ترى عقليتك؟

- أريد الزواج يا ندى.. لا أكثر ولا أقل.. فاتني العمر وأنا الآن على مشارف الأربعين.. وأنا بدون بيت ولا زوجة وأولاد يزيدون حياتي قيمة.. حياتي بعد عملي، فارغة تماما..

- وبتلك الطريقة قررت أن تملأها، هنا؟ ولماذا لم تتزوج كل تلك السنين؟

- أوافق على استجوابك لي، رغم أنك لم تجيبي ولا مرة على أي من أسئلتني.. غير أنني أشعر أنك ستكوينين هي التي أبحث عنها..

- أشكرك لحسن ظنك والله.. ولكن أخبرني أولا بقصتك؟

- كنت مرتبطا بأجمل البنات على الإطلاق، أحببتها منذ الجامعة، وقبل زفافنا بأيام توفيت في حادث سيارة، وهي عائدة من محل اختارت منه فستان الزفاف، كانت تقيسه قبل الفرح.. ربما تتخيلين أنه مشهد من فيلم.. ولكنني ظللت حبيسا لكل تفاصيله الموجهة ١٠ سنوات من عمري.. لم أطق النظر لامرأة بعدها.. ولم أجرب الرضوخ لزن أمي في كل الزيجات التي عرضتها علي.. كنت أراها في أحلامي تنادينني كل ليلة، فتوهمت ربما كانت تقصد أنني سأموت قريبًا لألقاها.. مرت سنون وأنا على هذا الوهم، أنني سأموت قريبًا، فلا داعي لأن أتعس غيري معي.. وفجأة اكتشفت أنني لم أفعل أي شيء في حياتي.. لا مت، ولا تزوجت.. ولا بقيت لي حياة أعيش من أجلها..

حتى الشغل مللت منه.. ففكرت أن أتزوج في أسرع وقت.. لربما وجدت ونيسي.

- وأنت جاي تموت معًا يا إبراهيم.. ههههههه آسفة آسفة.. أمازحك طبعاً، العمر الطويل لك طبعاً، ولكنني تعبت من قصص الدراما هنا الصراحة، وفرضاً قبلت الزواج بك مصدقة لقصتك، أتضمن لي ألا تظهر لك خطيبتك في أحلامك وتشاركني فيك، كأفلام عفريت مراتي، أو واحدة من تلك الأفلام؟ لا لالا يا سيدي الموضوع مبرك..

- لا أقبل سخريتك عليها، كانت أفضل النساء ولو عليّ ما فكرت في غيرها..

- ولماذا أنت هنا على البرنامج إن كنت لا تريد غيرها يا سيدي؟ أنت عجيب فعلاً يا إبراهيم، ولولا أنه يعجبني اسمك لأنه اسم والدي، ما كنت أكملت كلامي معك من لحظة القرابة مع توفيق الحكيم بالحب تلك.. لا تقل لي أنك تلمي نداء الطبيعة لا سمح الله! جوازة والسلام يعني!

- سأرحل إن ظللت تتحدثين بتلك الطريقة.. كنت من دقائق على وشك الإعجاب بك.. من فضلك فلنتحدث بجدية فالموضوع لا يحتمل هزارك..

- هههههه أنت تزيد كوميديا والله يا إبراهيم.. كنت على وشك الإعجاب بي، أرجوك تمسك بي قليلاً!! فلترحل إن شئت لن أمسك في تليفوني كي لا تخرج منه أعدك بذلك.. ثم أي إعجاب على وشك أن يحدث، وأنت لا تعرفني إلا من دقائق، ولم تر حتى صورة لي.. لن أقول لك أنني عادية الملامح حتى، لكن ماذا لو كنت معاقة مثلاً، أي إعاقة جسدية، هل سيكون إعجابك قائماً بفكري؟!

- سأقابلك.. وسأعرف مدى الإعاقة وكيف لي التكيف معها.. ولكن لدي شرط أن يكون اللقاء شرعياً في بيت أهلك.. لا ألعب بنات الناس هنا يا ندى.. لا يهمني شكلك.. يهمني الروح التي سأكبر معها.. فقط هو شرطي الوحيد.. فكلما قابلت واحدة هنا، تطلب أن نتعرف على بعض كثيرًا قبل التقدم لخطبتها، وخروجات وتليفونات ليلية وسهر، والحقيقة أنني لم أحب ذلك، وليس لدي لا عمر ولا بال الصراحة..

- مممم، يبدو أنك تتكلم بجدية وأنا أخاف أن أضحك من جديد لأنني تذكرت حالاً فيلم «جاي في السريع» لماجدة الكدواني وهو يخبر ريهام عبد الغفور «في مستقبل بيضيع» فربما كان من الأفضل أن انسحب الآن.. آسفة يا

إبراهيم «ماتزعلش مني».. فأنا أيضًا لست حمل مواضيع أتناقش فيها بجدية، خصوصا وأني بت لا أثق في أحد هنا.

- ندى.. أتنسحين فعلا دون أن تعطيني فرصة لمقابلة واحدة حتى؟

- مقابلة واحدة؟ أي مقابلة يا إبراهيم وأنت تريد دخول البيوت دون أن تعلم عن بناتها شيئا، سوى أنك فقط تريد الزواج، أنت حتى لم تحصل مني على إجابة إن كنت متزوجة أم لا.. وأكملت كلامك عادي.. دع أمك تختار لك يا إبراهيم أفضل مما تفعله هنا.. عن إذنك وأتمنى لك حياة أكثر سلاما..

- أنتِ بذلك نموذج لفتاة غير جادة فعلا.. أنتِ هنا مثلهن تقضين وقت فراغك ولا تريدين أي علاقة محترمة حلال.. أنتِ سيئة يا ندى.

- أنت مسكين يا إبراهيم.. ولكنك أضحكنتني كثيرا فشكرا لذلك.. لا أعتقد أننا سنلتقى مرة أخرى، ولكن امسح جملة أنك حفيد توفيق الحكيم.. الكذب حرام يا إبراهيم.. سلام.

خرجت قبل أن يكمل كلامه وضغطت على كلمة unmatch سريعا حتى تختفي الشات كلها كما هو معروف في البرنامج، لم تعد ندى تتعامل بأي روح مع هذا البرنامج، جمُد قلبها وبردت روحها وصارت تتعامل معه بشكل جامد خالٍ حتى من أي فضول.. لكنها لم تكن تعلم أنها أدمنته بالفعل، كانت تتفنن في الرد بسخرية على العابرين فيه، كأنها تنتقم من كل الذين صدقتهم هنا.. لكنها كانت تعلم أن القصة لم تنته بعد.. شيء بداخلها دفعها لإطلاع ثريا بالأمر، وأن أحدهم عرض فكرة الزواج، لربما تناقشتا في الأمر الذي لطالما أغضب ثريا كلما حاول حتى المعارف فيه..

كانت ثريا في هذه الأثناء تتحدث في الهاتف مع إحدى الجيران كما تحب أن تفعل أحيانا بعد صلاة العشاء.. قبل أن تجلس إلى جوارها ندى وهي تلعب بخصلة من شعرها سارحة في الطريقة التي ستخبرها بها.. ما إن أنهت الجدة التليفون، قالت لها ندى وهي تلم شعرها بشكل دائري إلى الأعلى:

- جالي عريس يا ستو.

- «انتيلي يا ندى والنبى».. دعيني أحمر «تقلية» الكشك لتتعشى معًا بها..

- كشك إيه يا ستو.. بقولك عريس ألن تسأليني حتى؟

- لو كنتِ لا تلعبين بهذا المخروب يوماً لكنت ربما أنصت لكِ.. ربما.. وليس أكيد يا ندى.. ثم أنا لن أزوجك يا حبيتي قبل أن تجيدي (فلفلة التقلية دون أن تطرى منك).

تركها ثريا ودخلت المطبخ وهي تتمتم ببعض الكلمات عن حال ندى وعن مسكتها للهاتف كثيراً.. فألقت ندى هاتفها على الكنبه، ودخلت وراءها المطبخ تقول:

«آه بتفلفليها إزاي بقى يعني مش فاهمة».

* * *

حسن

كانت تعلم أنها لن تتزوج بتلك الطريقة، فهي رغم تجاوزها السن التي أقرها المجتمع لبداية مرحلتها مع العنوسة، لكنها كانت حاملة بالقدر الذي يجعلها تنتظر القصة الأجل التي يستحقها قلبها البكر.. هكذا كانت دائما تحدث نفسها.. ولهذا ظلت عالقة بعالم تيندر.. لا تعلم أي وجهة لها عليه سوى أنها ألقت الكلام مع الغرباء هناك.

في المكتبة بدأ يومها.. لم تعد تقرأ كثيرا لكنها أصبحت تكتب أكثر، منذ استحوذت عليها فكرة جواباتها إلى «الغريب»، وهي مقيمة بفكرة الكتابة اليومية، فبسببه كان لديها تجربة حميمة خاصة مع الكتابة، إحساسها بأنها تخاطب أحدا تعرفه ولن يقرأ ما تكتب، يريحها ويجعلها تخرج كل ما تشعر به على الورق بانسيابية.. هكذا هو فعل الكتابة.. طريق الحرية بلا منازع، أحلام كثيرة تمنتها ندى، عجزت ربما عن تحقيقها.. أو البوح بها، فتولت الأوراق تحملها نياحة عنها.. لذلك أصبحت تحب «الغريب» الذي عرّفها شغف البوح على الورق..

حتى أنها لم تكتب على هاتفها أبدا.. تكتب على أوراق منفصلة تعيد كتابتها في النوت الوردية.. أو تلتصق فيه وريقاتها أحيانا إن لم يسعها الوقت لإعادة الكتابة.. فتصبح الورقة كاللوحة، ملصقا عليها ثمرات مبعثرة..

دخل «الغريب» إلى المكتبة بعد أسبوع من انقطاعه، جلس في الركن البعيد نفسه، للمرة الأولى ينظر إليها يرسل لها تحية بإيماءة خاطفة.. وما زالت لا تريد معرفة اسمه.. يعجبها كونه «غريب» يخرج إليه الكلام سهلا.. أنهت بعض المهام المطلوبة منها، وبدأت تكتب.. ولم لا تفعل وهو اليوم أمامها بهيئته الأنيقة وعطره الذي ملأ المكتبة كلها من لحظة دخوله..

- «صباح الخير أيها الغريب، بالأمس تعرفت إلى شخص اسمه إبراهيم، على اسم والدي، رغب في الزواج مني بعد ساعة حوار تقريبا.. يبدو أنني محبوبة يا غريب، أتصدق هذا، قرأت مرة مقولة لابن القيم يقول، أن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، وأنا صابرة يا غريب، أصبر منذ سنوات على حلم أن يجمعني الله بمن يكملني، وأشكره أنه أهداني القدرة على الحلم.. فأنا مؤمنة بالله وبالآحلام.. فماذا عنك.. أراك كل فترة تأتي لا تلتفت إلا لكتبك..

وجهاز الكمبيوتر خاصتك.. ترى أهي رسالة ماجستير أو دكتوراه، تنهيا؟ أو لربما تعد كتابا عن موضوع ما معقد؟

أتعلم، لا يهمني.. يعجبني فقط أنك هنا.. تعجبني فكرة أن أتخيل أنك هنا من أجلي.. وكان الله أرسلك لشيء ما.. لا تغضب مني كجدتي لأنني ما زلت على البرنامج.. لا أعلم في حقيقة الأمر لماذا ما زلت هناك بعد تلك الخيبات المتلاحقة، ولكنني يا غريب سعيدة بكلامهم الحلو عني، أنا لم أسمع كلاما حلوا في حياتي يا غريب.. لن أخفيك سرا كما قلت لك سابقا ما زلت في حاجة لأن يشعرني أحدهم كم أنا جميلة، وكم يبهرهم أن كلامي منمق ومرتب ويدخل القلب، تعلقت بكلام مصطفى ومحمود أعلم.. لكنني الآن أكثر وعيًا كما ترى، غير أنني لم أجد عالما يشعرني بثقتي في نفسي غيره يا غريب».

غلبها النعاس فجأة، فخطفت لحظات لتستريح من الكتابة، وهي تخفي رأسها بين ذراعيها على مكتبها، تحتضن أوراقها كأنها وسادة ناعمة تغفو عليها كأنها في حضن ثريا.. لم تشعر لا بالوقت ولا المكان، ولم يوقظها إلا صوت عاملة النظافة، أن ميعاد الانصراف قد اقترب.. فتقوم مخضوضة لا تعلم كيف نامت ساعة تقريبًا أو أكثر.. تعيد بعض الكتب إلى الرفوف، وتلملم أوراقها التي كتبت عليها.. تلمحه من بعيد، ما زال منشغلا بما يكتب، تطيل النظر إليه وتخبر العاملة أن تبلغه بميعاد انتهاء اليوم في المكتبة.. وتختلس إليه نظرة أخيرة وهو يلم أوراقه أيضًا..

أخبرت العاملة أنها ستدخل الحمام وتعود لتحمل حقيبتها ويكون هو أيضًا انصرف..

بعد رحيلها بثوان.. تخبر العاملة «الغريب» بوقت الانصراف، في الوقت الذي كان يغلق جهازه بالفعل ويهدم ملابسه استعدادا للرحيل.. وفي طريقه للباب، يمر بمكتب ندى، فيلمح ورقة على الأرض سقطت منها، يلتقطها دون أن تلمح العاملة ذلك.. انتبه للخط الحلو.. لم يفهم المكتوب.. لكن ثمة اهتماما حدث لتوه..

في السطور قرأ كلمة «برنامج» وسؤال «هل أدمنته؟» وكلام عن أمنيات ومخاوف..

كان أمامه أن يعيد الورقة إلى مكانها، أو يطلب رقمها حتى ليخبرها أنه وجد ورقة تخصها، لكنه أثر بها نفسه.. وكان أخجل من أن يطلب رقمها، ولا رقم غيرها في الحقيقة..

اسمه حسن، في أواخر الثلاثينيات يأتي كل أسبوع من بني سويف لينهي أبحاثًا خاصة بالأساطير الإغريقية، لرغبة مؤجلة في إنهاء رسالة الماجستير عن أدب المسرح وأساطير الإغريق خصوصًا وتشابها مع المصريين.. لطالما عطل نفسه عن إنهاء رسالته متحججًا بأنه لم يصل للقصة الأنسب.. كان متيما بحضور أغلب العروض المسرحية في كل أرجاء قصور الثقافة المنتشرة في المحافظات، لهواة ولفرق مسرحية معروفة.. كتب نصوصا مسرحية عديدة لبعضهم.. منذ تخرجه في الآداب قسم اللغة العربية من بني سويف، وهو يقسم وقته بين مسرحياته والكتابة، وبين الذهاب إلى جامعة عين شمس، كلية آداب قسم الدراما والنقد المسرحي، المكان الذي أحب اللجوء إليه بين الوقت والآخر، منذ صار المسرح العشق الذي يتنفسه.. وبالقسم نفسه سجّل الدراسات العليا استعدادًا للماجستير المعطل.. وقد التحق قبلها بمعهد النقد الفني لأكاديمية الفنون لدراسة النقد المسرحي أيضًا.. وحين أخبره أحد أصدقائه بوجود بعض الكتب القديمة عن أساطير الإغريق في مكتبة الجامعة كان قد اطلع عليها سلفًا.. صار لها وقت هي الأخرى.. يسجل كل ما تقع عليه عيناه ويكتبه.. عله يجد ضالته في موضوع رسالته..

أهمية الأساطير اليونانية لحسن، كانت في قوة تفاسيرها للنظم والعادات والظواهر الاجتماعية المختلفة، وكذلك ارتباطها المباشر بالدين، غير أن توجيهها لكيفية الوصول لحياة أكثر سعادة، واحدة من أكثر المتشابهات التي يتقنها المصريون إلى الآن.. أو على الأقل يسعون وراءها.. شغلته للدرجة التي كانت تجعله يتخيل الناس كما لو كانوا يعيشون في تلك الأساطير.. كان يجيد فن التطابقات.. ومع الكتابة، والمسرح، كانت الموسيقى ضلع مثلث الونس لحسن.. كانت تلهيه عن العالم واجتماعياته، حتى أنها ألتهته عن فكرة الزواج دون أن يدري.. فالموسيقى كانت تأخذه أحيانًا إلى مزيد من الكتابة والعزلة.. التي رضي بهما وليقًا وونيسًا.. عكس ما ضجرت به ندى..

كل الناس عابرون في حياة حسن لا يلقي بالا لأحد. كل الأصدقاء يقفون على مسافات واحدة من حياته.. إلا أمه خندق أمانه الأهم، يسكن إليه حين تشتد به الحروب ويعود كل مرة في زيارته لها ببني سويف، صغيرا تأتها متعبا، يهدأ في حضنها من أول ضمة..

بين حضن أمه.. وحضن ثريا، تشابه حسن وندى..

كل ما فهمه حسن من سطور ندى، أنها عالقة في برنامج لا تحب التواجد فيه ولكن ثمة شيئًا جعلها مرتبطة بعالمه..

كان حسن يراها في المكتبة، ممسكة بهاتفها، كل مرة بانفعالات مختلفة، مرة غاضبة، ومرات مبتسمة، ومرات أخرى تضغط على شاشته بانفعال وكأنها ترسل سبابا بحروفه وليست مجرد كلمات في محادثة عادية.. فعرف أنه ربما كان البرنامج الذي كتبت عنه.. وبالتأكيد هو برنامج محادثات.. للتعارف، أو كذلك خمن.

صحيح لم يكن يعرف اسمه، غير أنه لم يكن صعبا عليه، أن يخمن بعض الأسماء المنتشرة تلك الأيام، كان يسمع عن برامج مثل «هيرمونكا»، و«لافلي»، و«اكوبيد»، و«هينج» و«بيدو» وبرنامج «تيندر»، والذي كان يعتبر أشهرها إلى حد كبير، خصوصا بعدما ذكره «أحمد غندور» أو «الدحيح» في إحدى حلقات برنامجهم الشهير على اليوتيوب، وما أدراك أن يتكلم وقتها الدحيح عن برنامج مثل تيندر، حتى لو سلبا، ليثير فضول متابعيه للتجربة، ولو على سبيل التسلية.. الدحيح يقول الكل يجرب..

تخيل حسن أن تيندر ربما كان الأنسب لندي لو خاضت التجربة، فهو العالم الموازي الذي يبدو له من هيئتها أنها تود لو كانت في عالم آخر غير ما هي فيه..

وكما كانت ندى عالقة في عالم افتراضي، تعلق حسن بفكرة البحث عن ندى، في عوالمها الافتراضية..

كان يأتي للمكتبة أكثر من المعتاد، أحب فكرة مراقبتها من بعيد، ليعرف من ستكون لو قابلها في أحد تلك البرامج..

بحث حسن عنها في أكثر من برنامج، كان يشعر أنها من الشخصيات التلقائية التي تدفعها فطرتها وسذاجتها لأن تخبر الغرباء عن كل معلوماتها الحقيقية.. فكان يبحث بين البنات اللاتي يقابلهن، عمن تحمل اسم ندى.. وتعمل في مكتبة بجامعة عين شمس.. أو تحب الكتب.. وصاحبة بشرة بلون القمح.. وعيون تضيق كلما ضحكت.. ونغزة تظهر في خد واحد إن مدحتها أستاذة مروة موظفة شئون الطلبة حين تسأل عنها في بعض الأيام وتجلس إلى جوارها تحتسي كوبا من الشاي معها، هاربة من زحمة الطلبة أمام شباكها.. هكذا يصفها حسن..

أسبوعان وحسن يتحسس أثر ندى في كل البرامج التي يدخلها، يحمل التطبيق، ويبحث فيه ساعة أو أكثر، ليحذفه ويحمل غيره.. قابل الكثير من «الندى».. وكلهن ليست هي..

كان يعلم أنه لا يملك إلا الحظ في رحلة البحث عنها. وهي التي تجلس أمامه حالاً.. لا يريد لها إلا في عالمها الذي علقت به.. يحب لو يقابلها كما لو كانت هي من قابلته في صدفتها التي تتمنى..

هو الآن أخيراً على برنامج تيندر، يتحدث إلى أربع فتيات اسمهن «ندى»، سريعاً كان يخرج من المحادثة التي لا يجد لها أثراً فيها.. لكنه كان صبورا بالقدر الذي كافأه القدر بأن يجدها بعد طول صبر غير متوقع في «الندى» الأخيرة.. إنها لعنة الفضول التي أصابتهما.. كلا بطريقته.

صحيح وجد ملفاً شخصياً يشبه كل التفاصيل التي يعرفها عن ندى، صور لفتاة تحب القراءة، تكتب كما توقع أنها تعمل بمكتبة. وكتبت أيضاً «لم تكن تحاول شراء السعادة ولكنها كانت ببساطة تحاول شراء غياب التعاسة» وهي جملة مستوحاة من رواية «١٢٣٤» لبول أوستر من الروايات الأكثر مبيعا رغم ضخامة حجمها غير أنه استبعد أن تكون ندى بالصبر لأن تقرأ مثل تلك الرواية.. لكنه عندما قرأ جملة أخرى «القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات، لا أفعل بها شيئاً سوى الغياب عن الوعي».. عرف أنها ندى.. لأنه رأى «يوتوبيا» ذات مرة أمامها على مكتبها.. هي بالتأكيد واحدة من الذين جعلهم أحمد خالد توفيق يقرأون.

لم تتحدث ندى لأحد بشغف منذ قصتها الأخيرة مع مصطفى، ولا لأي أحد بعد إبراهيم العريس العابر.. كانت تلهي نفسها بالكتب، والمكتبة، والحديث إلى صديقتها منار في كثير من الأحيان، تدرشان في أي شيء.. وعادت ندى ترسم..

في مرة أخبرتها منار عن ورشة للعلاج بالفن قرأت عنها على فيس بوك، واقترحت عليها أن تجرب، عجبها الفكرة، ربما ساعدها ذلك في تجديد روتين يومها، وأن تُشفي بالفرشة والألوان ندبات وحدتها الملعونة..

أسبوعان وحسن ينتظر ندى هناك.. يطمئن أنها بخير في مكتبها صباحاً، ولم يعد يهتم بإنهاء بحثه الذي جاء من أجله.. صار انتظارها بحثه الجديد والأهم.. وفي الليل يمسك هاتفه عليها تمسكه هي الأخرى، فيتقابلان..

في هذه الأثناء لم تصمد ندى أمام أعراض الانسحاب كثيراً، أوحشها ذاك الإحساس الذي عرفته هناك للمرة الأولى في حياتها حين تتجاذب أطراف الحديث مع أشخاص غريبين يُعجبون بها.. أو ترحل سريعاً حتى..

أمسكت هاتفها ومرت على صور كثيرة، حتى وقفت عند حسن.. لم يضع صورة هو الآخر.. لكن لمستها جملة كتبها على «بروفائله» تخيلت كما لو كان يقصدها بها.. «أيتها الوحدة، أنتِ موطني الوحيد، أنتِ رفيقي الدائم حينما أفترق للوطن، الناس هم عُربتي».. جملة لكبيرها الذي علمها ألفة الكتب أحمد خالد توفيق..

Matching أخيرًا سمع حسن صوت هاتفه معلنا أنهما صارا متوافقين ويخبره البرنامج أن يأخذ خطوة البداية ويفتح الكلام.. وفي الحقيقة البرنامج يفعل الأمر نفسه مع الطرف الآخر.. ويحفزهما دوماً بجمل للبدء فوراً. ولم يكن حسن ينتظر ندى لتبدأ.. ففعل هو سريعاً:

- مساء الخير يا ندى.

- أهلا حسن.. اسمك حسن أم تغيره حسب المزاج؟

- مزاج! مزاجي دائما يوافق كوني حسن.. يتغير هو.. ويبقى اسمي حسن.

- أعجبني ردك.. وماذا تعمل يا حسن؟ أحب اسم حسن بالمناسبة.

- شكراً لك.. صحفي أحياناً، عاطل أحياناً، كاتب وخصوصاً للمسرح أحياناً أكثر.

- الله.. عُرضت لك مسرحيات معروفة؟

- نشرت أغلبها في دفترى البُنِّي.. وأخذ بعضها صديق لي متحمس، ليعرضها في مسرح التجوال بالمحافظات، يمكنك القول أنني كاتب مسرحي شوارعي.

- صحفي، وتحب المسرح، ربما سنكون على وفاق.. ولمن تقرأ إذن؟ وفي أي المجالات تكتب غير المسرح؟

- يمكنني الآن التباهي لك بمئات أسماء الكتب الأكثر مبيعا التي قرأتها؛ لأحمد مراد، إبراهيم عبد المجيد، المنسي قنديل، وإليف شافاك وغيرهم، أو أمهات الكتب لكبار الكتاب القدامى، جوجل سيساعدني في ذلك بشكل رائع.. وستصدقيني بالمناسبة، وسأتأخر قليلا لجلب لك بعض الاقتباسات وربما أبرر تأخيري بضعف شبكة الإنترنت.. ما رأيك؟

- ما كل هذا؟! أدخلت هنا لتعطيني محاضرة؟! لا حاجة لي الصراحة بأي منها.. كنت أشعر بالملل قليلا ودخلت لربما تبادلت الحديث مع أحدهم فيذهب بعضه عني.. ووطننت أنا سنتوافق، لكن دعنا نتخيل أننا لم نلتق من الأساس.. اعذرني سأنسحب..

- ثواني يا ندى.. لم أدخل لأتفلسف عليكِ ولا على غيرك.. لكنني دخلت محبطا ومثقلا بالهموم، ربما مثلك تماما.. ومحاطا بقليل من الفضول عما أخبرني به صديق أنه بإمكانني هنا الارتباط! هنا؟ أحقا يمكن فعل ذلك؟ لأنني أعلم جيدا أن بإمكان الكل هنا أن يكذب، أليس كذلك؟ ولكنني ومع ذلك كنت ربما سأخبرك عن ذلك «الحسن» الذي تمنيت أن أكونه..

- حلو، دعنا نبدأ الحديث من هنا يا حسن.. فلنتخيل أننا هنا سنتحدث عما كنا نتمنى حدوثه لنا.. أو لنقل أننا سنكشف عن أحلامنا التي ما زالت قيد التمني في الأجل القريب.

- أوافق.. شرط أن تفعلي أنتِ ذلك بالصدق نفسه..

- أعدك أنني سأحاول.. المهم أخبرني أولا هل أنت متزوج أو تبحث عن زوجة ثانية أو حتى أولى؟ اعذرني شاب شعري من نماذج مريبة هنا.

- هاهاهاها، لست متزوجا.. ولا أعتقد أنني سأفعلها من هنا.. وستحكين لي مرة عن هؤلاء الذين لونوا شعرك بالأبيض.

- وأنا أيضًا لم أعد أشعر أنني سأتزوج من هنا.. ولكنني لن أخفيك سرا، كنت أوهم نفسي بإيجاد شخص هنا أضع فيه احتمالات حدوث ذلك.. كبرت ولم تجمعني أحاديث كثيرة مع جنسكم لا في ثانوي ولا في الجامعة.. ولا حتى بعدها..

- فتاة في الثلاثين من عمرها لم تتحدث إلى رجل، أتسكنين أحد الأقاليم؟

- أنا من القاهرة.. كانت جدتي ثريا تخبرني أن ذلك غير مسموح، حرام أحيانا، وعيب أحيانا أخرى، ولما كبرت وصرت أعلم الحلال والحرام والعيب.. أقنعتني أن قريهم وجع.. فابتعدت حبا لها.. لا تصديقا لكلامها.. وكبرت أكثر وتهت بين أوراق الكتب التي قرأتها ورسمتها، ووحدة ارتضيت بها أنيسا ملائما.. ونسيت.. أو تناسيت مشاعري كأثني، حتى صار عامي الخامس والثلاثون، لأعلن أمنيته بثقة.. رجل يشعرنى بأنه مرغوب في.. أنا لست ناقمة يا حسن. أنا فقط أحلم.

- وماذا وجدتِ هنا يا ندى؟

- لم أجد شيئًا غير الذي كانت تخيفني منه ثريا، انجرفت مشاعري الهاربة من مرحلتي ثانوي والجامعة، مع أول كلمات إطرء، مع أول متشابهاات زائفة، وجدت نفسي أسيرة احتياجي.. مصفودة العقل، معصوبة العينين. أمد يدي فقط تجاه رجل يخبرني أنه تخيلني جميلة دون أن يراني.. فجئت أتخفي وراء كلماتي وكتبي وأفكاري.. فلطالما كرهت النظر لنفسي في المرآة.. لوني الأسمر، بثور وجهي المبعثرة، شفثاي الغليظتان، وعيناي الضيقتان، جسدي الممتلئ ببعض التقاسيم التي يداريها حجابي..

أذكر تلك المرة الوحيدة التي تخيلت أن زميلا يبادلني إعجابه به، فأكتشف أنه مقلب من حاقدة تنمر حتى من ذيل حصان لبنت في الصف الثالث الثانوي.. تفاصيل كثيرة تراحم ذاكرتي السخيفة فتسهل عليّ الرضوخ لفكرة أنني سأظل وحيدة لا ألفت انتباه أي رجل..

فلم لا أفرح هنا بأشخاص رحبوا بالحديث معي دون رؤيتي، وآخرين سمحت لهم برؤيتي بعد أسابيع طويلة من المماطلة، فأطالوا النظر لعيني الضيقتين، والشفاه الغليظة، فابتسموا لروحي، وابتسمت أنا. نعم تركوني بعدها، ورحل كل منهم في كذبه. نعم أحزنتني ذلك ولكنني دون قصد صرت عالقة هنا أبحت عن كذبة أخرى تعيد لي اللذة نفسها.

- رأيت يا ندى.. تبحتين عن كذبة، أنت التي قلتِ، كل شخص هنا جاء لسبب ما يخصه، لم يجرؤ عليّ إطلاعك عليه من أول مرة. وربما لحسن حظك رحلوا قبل أن يتركوا فيك ندوبا لا تلتئم.

- وما أدراك أنهم لم يفعلوا؟

- الأوهام لا تجرح يا ندى، قد تُحدث بعض الآلام أحيانا، لكنها لا تترك أثرا بالغا، أنت هنا صنعتِ أوهامك بنفسك، ولم يفعلوا، على الأقل منهم من لم يقصد، ولكنك ببساطة كنتِ المادة الخصبة لأن يجربوا أي شي معك، حتى لو كان بخذلان براءتك تلك، سامحيني إنها مُتعة بعض الذكور.

- أنت لا تدري شيئًا عن النماذج التي قابلتها هنا، واحد يريد علاقة جنسية عابرة في مكالمة تليفون، وآخر يريد الزواج للمرة الثانية «كتر خيره لصراحته»، لأن زوجته لا تقدر على فحولته الزائدة في الفراش، وثالث جاء مصر إجازة شهرا يريد الزواج سريعا من واحدة تقبل بوجود الحشيش ضرة وحيدة لها، لأنه يقدره جدا ولا يفكر في الاستغناء عنه، وذاك الذي لم يكمل

محادثة معي لأنه تلفظ بلفظ خارج بالنسبة لي، فألزمته حدوده ببساطة، لكنه اعتبرني من وادٍ بعيد متخلف، أستحق بسببه أن يسبني باللفظ نفسه، وفلان الذي طلب مني أن نجرب كيف ستكون شكل علاقتنا إن وافق وارتبطنا، فطلب مني في أول مكالمة تليفون أن أخبره عما ارتديه وقتها، فلما انزعجت وصرخت فيه، ضحك بسخرية وقال لي «٣٥ سنة وفاكرة هاكلمك ليه»!؟

سامحني لو أرغي كثيرًا..

- لا أبدًا أحب أن أسمعك.

- تعرفت مثلًا في مرة إلى دكتور صيدلي مهذب جدًّا، كنا نتكلم كثيرًا بشكل يومي لمدة أسبوع تقريبًا، حكى لي أنه طلق زوجته بعد خمس سنوات برغم حبه لها، لأنه اكتشف أن لا شيء يثيره معها في وقتها الخاص، إلا عندما تهينه وتوبخه أو تُخرجه، طلقها لأنه قَبِلَ بكونه مريضًا لا أمل فيه، لكنه لم يجرؤ يومًا على الذهاب إلى طبيب نفسي كي يساعده، ولكنه حكى لي أنا!

لم أكن أفهم ولا أعرف كيف هو الرجل الذي لا يأتي إلا بالذل والإهانة، لم أكن أعرف لحالتهم مصطلحات معروفة، هنا في البرنامج عرفت!

صدقني ما سمعته وعرفته هنا مفزع أكثر مما يمكنني حكيه لك، كان أكبر من استيعابي، كامرأة أتمت عامها الخامس والثلاثين. ناهيك عن تخيلت وقوعي في حبهم!

- أصدق كل كلامك يا ندى.

- أنا لا أذكر كم شخصًا تحدثت إليه هنا يا حسن، ومع ذلك فقد عرفت أشخاصًا تمنيت لو كنت أعرفهم خارج حدود هذا العالم الافتراضي، نصحت بعضهم كأني طبيبة نفسية عظيمة.. ونصحتني بعضهم ألا أعود هنا أبدًا، سمعوا نصائحي، رحلوا هم، وظللت أنا عالقة.. لا أجد ما جئت أبحث عنه؟

- يا خبر يا ندى، أما زال هناك ما تبحثين عنه رغم كل تلك الإحباطات التي تحكينها؟

- في الحقيقة كنت أبحث عني أنا، عن ضحكة ضحكتها هنا ملء فمي، كحالي مع محمود مثلًا ذاك الذي ظننت أنه يمكن لي أن أحبه ويحبني، جئت أبحث عن شخص يشاركني حلمي في حب الآيس كريم والكريم كراميل، والمشى

في الشوارع بلا هدف، دون أن يمل ذلك، ويحب دخول أفلام الكرتون في السينما، ويصبر عليّ حتى أتعلم كيف «أففل التقلية» فتقبل به ثريا زوجا لي، ولا «تُطفشه» كغيره.

أبحث عن رجل أشم فيه رائحة أبي، وأن يشعرني أغلب الوقت أنني ابنته الوحيدة العائد إليها حالاً من سفرٍ بعيد، فيضمني كل يوم بشوق هذا العائد إلى الوطن، لا يهمني أن أكون حبيته كل يوم، يكفيني أن أكون سكنه وداره وأمانه. يكفيني أن أكون له وطنًا، أتفهم المعنى؟

- أفهمك يا ندى.. جميل اسم ثريا، أهى والدتك؟

- جدتي أم أمي، وهي لي كل عائلتي، منذ رحل أمي وأبي صارت هي الدنيا، أتصدق أنني أخبرتها عن هذا البرنامج! أحكي معها أحيانًا عما أراه هنا.. الود ودها تضريني بشبشبها الأسود الجديد ذي النعل الخشبي الضخم، أو تحبسني في غرفتي بعد أن تسحب مني تليفوني أو الـ «مخروب» كما تحب أن تسميه أو ربما منعنتني من النزول من الأساس تماما كما يفعل الأهل مع ابنة مراهقة، لكنني أصبحت أذكرها مرارًا أنني صرت أختال فخترًا في طريقي نحو الأربعين.. فتسكت.

أتعرف أيضًا أنني صرت مجنونة أراسل شخصا لا أعرفه ولا أراه حتى، سميته «غريب».. أراه يأتي كل فترة إلى المكتبة.. يجلس في ركن بعيد، يطيل التركيز ساعات، لا يلتفت إلا قليلا.. جذبني هدوؤه، فقررت أن أكتب كل ما ينشطر بداخلي إليه، في النوت الوردية التي أحب ولا يهمني من سيقراها.. المهم أنني اختلقت شخصا يشاركني خواطري البائسة..

أما زلت هنا؟ أرغي كثيرًا أليس كذلك؟ أعتذر.

يرسل لها ابتسامه، ويرقص قلبه فرحًا أنها تتحدث له الآن بعد صبر أسابيع، وكما تخيل، تركت نفسها كتابًا مفتوحًا لكل عابر لا يستحق تصفح كل هذا البياض ونوره، كيف يسحبها من كل هذا.. مهمته باتت أصعب.. لا يتخيل إذا كان هو نفسه الغريب الذي قصدته أو لا.. قفز السؤال لمخيلته حالًا فزادت ضربات قلبه لإحتمالية الفكرة! وجن جنونه لِمَا تخيل أنها ربما كانت تلحظه كما يفعل! ولكنه سرعان ما أبعد الفكرة عن رأسه. وعاد يرد عليها:

-نعم معك طبعًا، يعجبني حديثك بالمناسبة، ولكنه كثير فعلا.. على أنك تحكيه لغريب يا ندى، هل يضايقك هذا الرد؟

- لا سبق وقاله غيرك.. عادي!

- مممم، طيب أكملني كلامك أنا معك..

- صحيح أتحدث كثيرًا، لكن معك الموضوع مختلف، والشعور أيضًا، ولا أعرف السبب، لم أكن أتكلم هكذا من قبل البرنامج بالمناسبة.. غير أنها ليلة واحدة يا حسن قادرة على تحويلك لشخص لا يشبه الذي كنت عليه أمس..

- بالنسبة لي، الموت هو القدر الوحيد الذي قد يفعل بي ذلك دون تنبيه، أقصد تحويلي لشخص آخر.

- ربما.. وربما ليلة نمت فيها باكيا فأغمي عليك من الوجد..

- وهل طالك هذا الوجد بتلك الصورة يومًا؟

- ذقته على كبر، بعدما عاندت ثريا في أن تتركني للتجربة. ذقته عندما انبهرت ببعيد يتجهمني، لغريب ولاه الشيطان أمري، غير أن بريقًا خادعًا فيه جذبني، فصرت مجذوبة لا تبالي بأحد. كنت متلهفة للحديث مع رجل تثيره جملي المنمقة، واقتباسات كتبي العادية، أو فلسفات كُتّابي مثلاً، كنت موهومة بتفاصيل مشتركة مع أحدهم تصورت أنها تخصني وحدي، فظننتها هدايا صبري، ولم أكن أعلم أنها سبل للخديعة أحيانًا..

- لم كل هذا؟ والآن ما الذي تشعرين به؟

- الآن أنا خاوية تماما، لم أَعُد أنبهر بأحد، ولا بنفسي حتى؟

- بئسة فعلا؟ بئسة فاقدة الثقة في نفسها، جميل!

- وأزبدك من القصيدة بيتا، وبت لا أثق في أحد، ولا أنت أيضًا.

- حقك طبعا.. ولكن أكل هذا لمجرد تجارب مبعثرة غير حقيقية في عالم افتراضي؟

- كل هذا لاندفاعي وتهوري..

- ولكن ما فهمته من كلامك، أنك دخلت فقط للتجربة، فكان عليك أن ترسخي للنتائج أيا كانت عواقبها، ولا تجلدين نفسك كل هذا. كنت منغلقة في عالم تحاوطه أحلام كُتابك المفضلين وأبطالهم المثاليين، وانخرطت

فجأة في عالم كل شيء فيه مُباح، والقائد فيه مبادئك وجنود من بضع قيم ومبعضرات من الأصول.

- والله إنها ثريا.. دعواتها كانت إرثي الأهم في الدنيا من رائحة أُمي.

- وهل يبأس إذن من لديه دعوات ثريا؟

ابتسمت ندى، لا لأي شيء سوى أن اسم ثريا يشعرها أنها بخير، لا يحل اسمها إلا وانصرفت شرور الدنيا في الحال، كتميمة الحظ الطيب، تقيها شرور الإنس وما فيهم، ولأن أحدهم صار يعرف غلاوتها لها. وفيما تفكر في جملته الأخيرة عن ثريا، فاجأها بأخرى صادمة محت ابتسامتها للتو:

- ندى.. المكان هنا فعلا لا يشبهك، قد يبدو غريبا لو طلبت منك مسح البرنامج، والتركيز في حياتك، لكنك فعلا تُعرضين نفسك لمزيد من السخافات أنتِ في غنى عنها صدقيني، وما تبحثين عنه ليس هنا على كل حال، كل الرجال الذين قابلتهم دخلوا لقضاء وقت فراغ ليس إلا، فلا تتعشمي في غير ذلك.

- تمام.. أعلم ذلك يا حسن. شكراً لنصيحتك، ولكن أي حياة تطلب مني التركيز فيها؟ المكتبة التي لا أعلم فائدتي فيها من الأساس؟ أم القراءة التي مللتها دون سبب؟ أم ترتيب غرفتي كل صباح لترضى عني ثريا وتطمئن أنني ست بيت شاطرة؟ وهي ترفض أصلا أن يصبح لي بيت غير بيتها، لأنها ترفض ببساطة كل عريس يتقدم لخطبتي من الجيران والمعارف، بحجة أن كلهم غير مناسبين لست الحسن والدلال.. دون أن تسألني حتى ولا مرة!

أي حياة أعود لأركز فيها إذن بالله عليك؟

- لا أعلم.. ولكن ربما تركيزين في حياة تتمينها يا ندى.. أليس هذا ما اتفقنا عليه أول كلامنا، أن نفكر فيما نحلم به، أن نخلقه إن أمكن..

- كلامك جاد أكثر من اللازم وصار يوترني.. دعك مني قليلا وأخبرني عما تتمناه أنت؟ لاحظت أن كلامك عن نفسك قليل جدًّا، ولكنك مستمع جيدًا على كل.

- سأخبرك كل شيء عني.. إن وعدتني بأنك تمسحين البرنامج قريبًا..

- لا أحب المساومة.

- لا أساوئك طبعاً، ماذا لو اعتبرناه فضولاً بشكل مختلف؟

- مممم، سأفكر، علي كل حال لم يعد يستهويني كأول مرة، وجودي عليه تمضية وقت فراغ أنا أيضاً، مثلهم تماماً.

- لم نأت لهذه الدنيا ليكون لدينا وقت فراغ يا ندى، نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل هكذا قال ابن القيم..

- تحب التفلسف يا حسن، والساعة أصبحت الثانية صباحاً وستغضب ثرياً جداً لذلك.. أيمكننا استكمال حديثنا غدا؟

- يمكنني فعل أي شيء لك يا ندى، غير أنني لن أعود هنا، في حياتي تفاصيل أكثر من أن أستريح منها على هذا البرنامج، ولكنني مهتم بالحديث معك جداً.

- كيف تهتم وأنت تنوي الرحيل؟

- نرحل معاً، نفكر في طريقة أخرى للتواصل، دعينا نجرب اتفاقاً مجنوناً آخر.. أتحبين فيلم you've got mail؟

- أحبه جداً ويذكرني بشخص عرفته هنا.

- لا علاقة لي بمن عرفتهم هنا، انسيهم من فضلك، وبما أنك تكتبين إلى «غريب» لا تعرفينه بشكل شخصي، فاعتبريني أولى وراسليني، على الأقل سأرد وهو لن يفعل. ولن أخرجك وأطلب منك تليفونك، ونحن لا نعرف بعضنا جيداً، ولنتخيل أننا في فيلمنا المفضل، ينتظر كل منا رسالة الآخر، دون مواعيد محددة.. اكتبي لي كلما رغبت في الحديث مع «غريب» وسأجيبك كل مرة كما لو كنت أنت.. بالإجابات التي نحلم أن نتحقق.. ها، ما رأيك؟

- مجنون.. لا أفهم الهدف من فكرتك ولكن دعنا نجرب.

لم يكن حسن واثقاً فيما يفعل، ولا من استجابة ندى في الأيام القادمة، لم يكن واثقاً حتى أنه هو نفسه «غريب» التي تكتب له ندى، كل ما كان يفكر فيه، كيف يخرجها من هذا الكابوس دون خسائر جديدة في روحها.

أرسلت ندى ابتساماً وألحقتها بتصبح على خير.. ورحلت.

وقبل أن يرحل، ترك لها بريده الإلكتروني، وقال لها:

- أنتِ الخير كله يا ندى، إلى اللقاء.
رحل وتركها لاختيار جديد، تركها لنفسها مرة أخيرة.

بعد كلامها مع حسن، شعرت برغبة في أن تعيد ترتيب كل شيء حولها في الغرفة، عليها ترتب تفاصيل روحها المبعثرة ووما آل إليه الحال في الشهرين الأخيرين في حياتها، ٦٠ يومًا على تيندر بدلوا حالها تمامًا، سمعت الجدة صوت تحريك السرير من مكانه، فدخلت تقول:

- خير يا ندى، أتبحثين عن شيء ضاع منك تحت السرير؟

- لا يا تيتا، فقط وددت لو غيرت مكان نومي، وسأنقل الدولاب الناحية الأخرى، ما رأيك، أشعر بأنني سأكون أجمل كل صباح وأنا أنظر إلى مرآة الدولاب وانعكاس الشمس فيها يشاغلني.

- يا سلام.. أنت جميلة كل صباح يا ست ندى من قبل هذا الدولاب، ولكنني أوافق على الخطة، فقد غيرنا مكان الدولاب والسرير ٢٠ مرة تقريبًا أليس كذلك يا حبيبتى، وما له نغير ٢١، قلت ماذا تفعل الشمس فيك الصبح؟

- تسخرين مني يا تيتا، تمام جدًا.

- أبدًا.. افتقدت المزاح معك يا نكديّة، ألا تمزحين؟

داعبتها ندى وضحكتا معًا، وهي تذكرها بإفيه شهير على وزن جملتها لمحمد هنيدي (مابتهزرش يا رمضان، لأ بهزر يا أختي).

لعبة الأفلام ما زالت التسلية الأقرب بينهما، ورغم أن ثريا كانت تعلم الإفيه لأنها تحب هنيدي وأفلامه.. قبلت الخسارة الواهمة أنها لا تذكر اسم الفيلم، لأنها رأت ندى تضحك ولم تلمحها كذلك منذ فترة.

نخسر أحيانًا بإرادتنا، فهزيمتنا في حضرة فرحتهم.. انتصار.

في المساء كانت قد أنهت ترتيب الغرفة، ونظمت بعض الكتب التي تنوي قراءتها الأيام القادمة بعد انقطاع قصير. وقبل أن تأوي إلى فراشها، أحبت أن تكتب إلى غريب:

- «اليوم كان غريبًا يا «غريب».. تعرفت إلى شاب جديد اسمه حسن، أعرف أنك صرت غاضبا من حكاياتي تلك، حسن أيضًا قال لي أن البرنامج لا يشبهني، وطلب مني مسحه! لا سلطان لحسن عليّ وأنت تعلم يا غريب،

ثريا لم تقدر، أيقدر هو بتلك البساطة مثلا؟! بالتأكيد الأمر برمته يعود لي، ربما فعلت ذلك لاحقا حسبما أقرر، طلب مني كذلك مراسلته على الإيميل، قديم حسن جدًا يا غريب، أليس كذلك؟ ولكنه محترم، تكلم معي بأسلوب مهذب، أعلم ردك، أنني سريعة الانخداع في الناس وكلامهم، وأن محمود فعل فعلته بالاحترام ذاته أول الأمر.. تمام شكرا يا غريب، لم أقصد من كلامي أنني معجبة به، غير أنني أعجبت بجدية كلامه فقط، لن يفهمني يا غريب إلا من شعر في قلبه الألم نفسه، وذاق الحرمان نفسه، ولا أنكر أنني انجرفت في البحث عن وهم الوليف بهذه الصورة.. على كل، الميزة الوحيدة اليوم في كلامي مع حسن، سواء التقينا مرة أخرى أو لا، أنه شجعني على إحداث بعض التغييرات في غرفتي، أفاق بداخلي الرغبة في أن أعود إلى نفسي قليلا أو تلك التي أحلم بأن أكون عليها. فبدأت من الغرفة، أليست أفضل الآن؟

حسنا.. شكرا يا غريب لأنك صديقي الصامت المفضل الذي يجاريني في حماقات خواطري.. أتمنى لو التقينا يومًا وتشاركنا تلك الحماقات معًا.. سلام مؤقت».

كانت ندى كالمُدمن الذي يتعافى تباغًا من آثار الانسحاب.. حبست نفسها في كتاب جديد عن القصور في مصر اشترته من إحدى مكتبات الهيئة العامة للكتاب، تمننت لو أن تجول ببعضها تأثرًا بجمال ما قرأت، تتسلل مرات متفرقة خاطفة إلى البرنامج، تتصفح صور الرجال عليه، دون الوقوف على أي منهم، وكأنها تثبت لنفسها أنه لا أحد يملئ عليها أفعالًا، وحسن لم يتكلم من يومها، فلم تكن تتخيل جدية كلامه إلى هذا الحد..

- أيعقل أنه ينتظر مني رسالة على إيميله فعلا؟ وما الفارق بين رسالة هناك، ورسالة على برنامج محادثة، سوى وقت أطول في انتظار الرد. ولم يشغلني طلبه من الأساس؟

هكذا كان يدور الحوار برأسها. حفظت ندى عنوانه البريدي على هاتفها، ولم تنو أكثر من ذلك، وبعدها بأيام وهي تكرر المرور إلى البرنامج، لم تجد محادثتهما الأخيرة والوحيدة.

من قواعد البرنامج، أنه عندما يقرر أحدهم الضغط على Unmatch يختفي صندوق المحادثة كله دون موافقة الطرف الآخر ولا حتى إعلامه.. وثرها ذلك جدًا، لم تغضب ولا مرة حين مسحت أي محادثة مع من تحدثت إليهم، ولا

ممن بادروها بال unmatch وكثيرًا ما حدث. ولكن هل رحل من البرنامج، أو قرر ذلك بعد توقف حديثهما؟ هذا ما أغضبها.

أما حسن.. فلم يكن واثقًا في خطواتها ولا فيما كانت تفكر، ولكنه راهن على فضولها، وعلى حديثهما الطويل الوحيد.. أنها ربما تأتي.

وبعد غياب أسبوعين منه، قررت مراسلته.. فكسب حسن الرهان.

الرسالة الأولى

حسن.. كيف حالك؟

بما أنك طلبت مني تلك الطريقة القديمة، هل تقرأ رسائلك بشكل يومي إذن؟ لا أدري إن كنت مهتمًا بفعل ذلك أو لا، ولكن دعني أخبرك سرًا: تعجبني فكرة الحديث إليك بدلا من «الغريب».

على الأقل -كما قلت لي- نسبة الرد على رسالتي هنا محتملة.. ومبدأ الففضضة كأني أخاطب نفسي ما زال متوفرًا، فشكرًا على فكرتك الغريبة. أراها تناسبني جدًّا.. رغم ضيقي قليلا بانسحابك وفرض فكرتك عليّ..

في كلامنا سألتني عما صرت أتمناه بعد تجاربي البائسة هناك.. صحيح نسيت إخبارك أننا منذ تحدثنا، لم أعد مهتمة بتكرار الأمر مع أي شخص آخر هناك.. كنت الأخير إلى الآن.

المهم لدي رغبة في التفكير معك بصوت عالٍ عما صرت أتمناه.. بالأمس مثلا، انتهت لكوني أنطق كلمة «لطيف» كثيرًا مع الجدة ومع منار ومع بعض رُوادِ المكتبة.. كأنه صار بيني وبينها وثاق.. نعم الكلمة نفسها يا حسن.. اللطف.. كلمة أنيقة حتى في نطقها، أليس كذلك؟

للمرة الأولى حتى التي أربطها بحلاوة الابتهاال (فكم لله من لُطف خفي).

أنا أريد اللطف يا حسن، أن يلطف الله بحالي، ويدثرني بلطفه هذا الخفي، ومن بعد الله أحب لو يُخبرني أحدهم أنني شخص لطيف، لطالما شعرت أن اللطف هو الغاية التي يجب أن يسعى لها كل البشر.. أصبحت دون قصد أتغزل بها في كل الأشياء حولي.

عظيم أن يراك أحدهم خفيًا، لطيفًا كنسمة هواء باردة في ليالي صيف حارة، اللطف يُطلق على الأشياء التي يختار الناس في وصف جمالها، كالأشجار ذات الأشكال المختلفة التي يغيب عن بالك مفردات وصف أجملها، الوردات الملونة، يكفيك أن تقول مثلًا وردة لطيفة، شكل البحر وإحساسك به، اللطف من صفات الله يا حسن.. أحب أسماء كثيرة من التسعة وتسعين، أحبه رحيماً ودوداً جباراً غفاراً وهاباً.. لكنني أتمنى جدًا لطفه حولي.. أتعلم سأعتبرها كلمة مقبولة جدًا إن وصفتني بها يومًا.. حتى لو صار العالم يكرر استخدامها بشكل ممل، أحبها جدًا يا حسن، وأحب لو أن يشعرنني أحدهم بلطف الله في وجوده معي.. آه قبل أن أنسى، أود أن أخبرك كم كنت لطيفًا جدًا معي المرة التي تحدثنا فيها.

الرسالة الثانية: من حسن

ممتن جدًا لثقتك فيّ ومجاراتك لجنوني.. ولأني كنت الأخير هناك.

قرأت على لسان باولو كويلو مرة أنه ثمة شيئان يحرمان من السعادة: العيش في الماضي ومراقبة الآخرين..

لا تنشغلي بما فاتك يا ندى اللطف كثير حولك..

الرسالة الثالثة: من ندى

أهذا كل ما لديك، فعلا؟

لم أتوقع أنك بخيل إلى هذا الحد.. يوم info@sila.dz ان أنتظر رسالتك وترد بسطرين ونصف!

من قال لك أنني أشغل نفسي بما فاتني؟ لم يفتني شيء من الأساس لأنشغل به، ربما ما أفعله الآن هو البحث عما يمكن تدوينه للسنوات القادمة، فربما أحكي بثقة أنني فعلت أي شيء..

الأرض عندي بور يا حسن، وطالما أنت ممتن لكلامي هنا، فدعني أخبرك أنني لم أعد أحتمل وحدتي، أعلم أنك ستخبرني مثلهم عن ثريا، تمام هي كل الدنيا والله، لكن بيني وبينها بحور، تخاف عليّ إلى الحد الذي جعلني كمنطقة ألغام لا يقترب منها أحد.. لم أجرؤ يومًا على سؤالها حتى لماذا كانت ترفض خطابي. لم تكن تقنعني إجاباتها أنهم لن يُحسنوا لي صنعًا أو أنهم ليسوا رجالا بالقدر الذي يطمئنها..

رأيها دائما لنفسها، ما لي أنا ورأيها يا حسن؟! كان حقي أن أقرر معها، أن
تتناقش حتى!

هل كان رفضها طوال السنين الماضية لأنها تخاف الوحدة؟ أم أنها خافت
عليّ فعلا أنصاف الرجال؟! تقول لي أحيانا في جلسات صفا:

- «لن أرضى لكِ إلا برجل مثل أبيك».

ومن في حب الأب يا حسن؟ ظلمتني لما بعدتهم كلهم عني، بحجة أنها لم
تلمح ظله فيهم!

كان أبي طيبًا شهيمًا محبًا لأمي يناديها بالست نوال، يحب كلمة ست، يُقدس
الكلمة في حضورها لأنها تتفنن في أن تكون «ست» على حق معه، كنا
نحب أنا وثرى الكلام عنهما، تلهيني الحقيقة بقصتهما.

أتعلم؟ وددت لو كنت كبرت معهما، تمنيت ذلك بشدة، للمرة الأولى التي
أتحدث عنهما بحرية، تمنيت أيضًا لو كان لي أطراف أخرى أحتمي فيهم في
هذه الدنيا مع ثرى، أشكو لهم مرة منها، وأختبئ في حضانها مرات من
تعنتهم.

كنت أتخيل كثيرًا مشاهد فيها أبي يحرمني المصروف لأنني رددت عليه
بأسلوب غير لائق أو خاطبته «أنت» دون حضرتك.. وأتخيل مشهدًا آخر،
أجري على أمي بعد المدرسة أخبرها عن بنات سخرن من ذيل حصاني
وشفتي الغليظتين، فتخبرني وهي تنظر في عيني أنني أجمل بنات الدنيا..
أشم رائحتهما كثيرًا، الحقيقة أتخيل أنني أشمها، أحب إحساسي بهما، لا
أعرف كيف سرقهما الموت مني فجأة ولم يمهلني لأستمع معهما قليلا..
فلربما تمكنت من جمع ذكريات أكثر بيننا.

ولكنه الموت يا حسن..

لم أشعر بمعاناه وقتها، كنت صغيرة جدًا، ولم تجعلني ثرى أشعر بحزني في
وجودها، حتى هذا البكاء الذي ينتابك من هول الصدمة، خباته عني، ربما
لذلك اكتسبت قوتها.. لكنني أصبحت أعني جيدًا ما هو الموت يا حسن،
خصوصا عند ليالي العيد، عندما كنت أنام على أمل أن يأتياني صباحًا ليأتياني
بعروسة العيد، فكبرت وعرفت أن هذا لا يحدث، وأن بالموت سيظل جزء
مميّ مبتورًا بيّمي هذا.. حتى ألقاهما في جنة نعيم وأحكي لهما كل ذلك
وأكثر.

تعلمت أن كل أمر في أوّله جَلل ثم يهون، إلا الموت وإن بدا هيئًا لا يهون. فادعوا لهما وأدعوا لي بالصبر دونهما.

الخلاصة.. أنني لم أعد أحب الوحدة وأخاف الموت وحيدة بعد ثريا»..

غياب حسن في الرد يستفزها، لكنه يثير الفضول من جديد فيها، وكلما غلبها بقوة، ذهبت إلى كتاب جديد تنتظره هناك، تحدثت نفسها ووعدته ألا تعود إلى البرنامج ولو لبرهة من الوقت. وصمودها يُرضيها، إلا غيابها!

في ذات الليلة التي أرسلت رسالتها تحدثه عن يُتمها.. كانت تقرأ الكيمياء لبابولو كويلو، وما فعلت ذلك إلا بسبب حبها لكاتبها المفضل عمر طاهر.. بعدما أرادت أن تعرف كيف حول عملاً أجنبيًا شهيرًا إلى المصرية الأنيقة.. أعجبت ندى برسالة الكتاب، وأحست أنها قد تكون في رحلة ما، ستصل إلى مبتغاهما قريبًا، وأن حتى وجودها على البرنامج ربما كان أحد عناصر الرحلة!

فتحت ندى النوت الوردية وكتبت فيها:

- «أؤمن جدًّا أن الأشياء التي تحدث لنا، رغم كل شيء نخاف منه وكل شيء نرفضه ونرتابه، هي الأفضل بلا شك، لأنها قدر الله، وقدر الله كله خير. وقدري في رحلتي إليك».

لم تتأكد ندى لمن كانت تكتب، لا الغريب ذكرت، ولا اسم حسن كتبت.

الرسالة الرابعة: من حسن

سبعة أيام مرت قبل أن يفاجئها برسالته الجديدة..

- آسف على التأخير في ردي كنت منشغلًا بكتابة نص مسرحي جديد، ماذا لو وددت أن تشاركوني رأيك فيما أكتب؟ سيعجبني وجود بصمتك الجدالية معي. أحب فكرة المناقرة معك، ما رأيك؟ سأرسل ما كتبتك إليك المرة القادمة إن وافقت على ذلك.

بخصوص رسالتك. آسف لكل تلك المشاعر الحزينة. آسف لكل ما مررت به من مرارة الوحدة ولرحيل والديك، ونعم سأذكرك بوجود ثريا، يخلق الله من قلب الابتلاء رحمته.. في أكثر من مرة لاحظت من كلامك حبك للكتابة والفضفضة على الورق، فلماذا لم تفكري في كتابة نصوص أدبية واضحة بعيدا عن الخواطر؟

تمام لدي اتفاق جديد.. ما رأيك تقرأين لي جزءا من نصي الجديد، وتكتبين أنت لي قصة جديدة؟

سأنتظر محاولتك الأنيقة».

استغربت ندى رسالة حسن.. صحيح هي قصيرة، لكنها دسمة جدًا، للمرة الأولى تشعر ندى أن أحدا ينتظر منها رأيًا.. بل ومهمة كتابية أيضًا، وهي التي لم تجرب إلا كتابة الخواطر فعلا، ومن قبلها مواضيع التعبير في المدرسة، سرقتها ذلك في التفكير لماذا لم تحاول الكتابة بشكل حقيقي فعلا؟! وهي تفكر في ذلك بالفعل من مدة.

بالأمس خرجت مع منار تمشتا معًا عند البحر الكبير، حكّت لها عن تفاصيلها الجديدة.. وعن حسن، وعن تجربة الكتابة، ولم لا وهي التي كانت تخرج من الروايات لتعيش فاصلا مع الناس سريعًا، فتعود إلى كهفها من جديد.

كانت منار تسمعها بتركيز واهتمام شديدين، وعند أقرب ناصية وقفت فجأة تدعي أنها نسيت شراء شيء من مكتبة تجاوزتها حالًا، طلبت من ندى أن تنتظر مكانها حتى تعود لشرائها سريعًا، ورفضت أن تعود معها بحجة أن الأمر لن يستغرق دقائق وستعود.

ولم تغب عنها أكثر من ١٠ دقائق، جاءتها مبتسمة تخبئ وراء ظهرها شيئًا اشتريته خصيصًا لها. وكطفلتين يخطفهما إحساس المفاجآت، طلبت منار منها أن تغمض عينيها بسرعة، لتفتحهما وقد مدت لها يدها بنوت جديدة، أكبر من كل هؤلاء التي اقتنتها، قالت لها منار والحماسة تنطق من عينيها:

- تلك النوت الكبيرة لن تكون كغيرها التي ملأت بعضها بخواطر كالمبعثرة يا ندى، ولا للاحتفاظ بها فارغة بحجة أنه يصعب عليك يا حرام الكتابة فيها من جمال تفاصيلها، ارحميني أرجوك. لكنها من فضلك ستكون فيها أولى محاولاتك الأدبية الأنيقة، هه هه، الأنيقة يا ندى.. هل تفهمين؟

ضحكتنا معًا قبل أن تختبئ ندى في حضان منار، لا تسمعان إلا صوت حبهما الأكثر دفئًا من كل الكلمات الحب بين الصحاب التي كتبت في يوم أو سكتب.

بين منار وندى صداقة عقل وجنون، كطيش اللحظة التي أطلقت لها العنان لتجرب الدخول على عالم تيندر، وبينهما كذلك ود وخوف أكثر، فخافت عليها ضعفها في عالم لا تعرف عن خباياه شيئًا، فدثرتها حبًا ودعاءً أن يحميها الله

من أذية العابرين هناك، وبينهما إيمان أيضًا، فقد آمنت منار لتوها بحلم جديد لندی، قبل أن تحلمه حتى هي لنفسها..

في طريق ندى للعودة، تذكرت كلمات الجدة ثريا، حين أخبرتها أن آخر حب تنتظره هو حب رجل، فالיום فهمت كلمات توفيق الحكيم عن أن الصداقة هي الوجه الآخر غير البراق للحب، ولكنه الوجه الذي لا يصدأ أبدًا!

عادت بيتها طيبة المزاج، قبّلت الجدة واعتذرت لها عن تأخيرها مع منار، وحكت لها عن هديتها المفاجئة، ولم تحك لها عن أي شيء آخر، لكنها أعلمتها أنه لم يعد للبرنامج وجود لكي يطمئن قلبها.

دخلت غرفتها، تنظر إلى دفترها الجديد بحب، وهي لا تعلم عن أي الحكايات يمكنها أن تكتب، بنظرة رضا وضعته على مكتبها عليها تعود إليه في القريب، وفتحت اللاب توب تكتب رسالة إلى حسن.

الرسالة الخامسة: من ندى

- كيف حالك يا حسن.. يعجبني خطفك للأحداث سريعًا.. أو الظاهر لي أنني وُلدت أحب الرغي بالفطرة، ما علينا.. سأتعلم الاختصار مثلك حتى تطلب مني العدول عن ذلك.. أعجبتني فكرتك جدًّا، أرسل لي نصك، وسأحاول أنا في نصي.. ولكني للحقيقة لا أعلم من أين أبدأ، لست ماهرة يا حسن في الكتابة على الإطلاق، كنت أحب الإسهاب فقط في سؤال التعبير وكتابة الخواطر، يبدو أن السبب هو دائي اللعين، الرغي.. المهم أنني أشعر دائمًا عندما أعود لقراءة خواطري أنها بالسذاجة المفرطة التي لا تسمح بأن يقرأها غيري، أنا أسخر من نفسي أصلاً.. حقيقي أنا فاشلة في ذلك، ولكنني سأسمح لنفسني بالتجربة أعدك بذلك.. ولكن دعك مني الآن.. ابعت لي نصك أنتظره بشغف..

الرسالة السادسة: من حسن

تفاجأت ندى برد من حسن أسرع من المعروف عنه، أقل من ساعة ووصلها إشعار وجود رسالة منه.. اهتز قلبها فرحًا لذلك.

- اکتبي فقط يا ندى..

اسمحي لنفسك بالكتابة حتى ولو بشكل سيئ.. أنت لا تبحثين عن مجد ما، ولا تنتظرين عبارات مثل «كم أنت رائعة». أعلم أنه ربما تأتيك قصص ما

في رأسك، متوهجة وذهبية ورائعة، حتى لو مقتبسة، وبمجرد أن تحاولي وضعها على الصفحة، تتحول إلى شيء ثقيل، رمادي وضعيف.. فيأتي الإحباط واليأس ليجلسا بجانبك، يهزان رأسيهما في عمك البائس.. وتصدقين معهما بؤسك، وتضعين بذلك وقت الكتابة نفسه.. انتقاد وتقليل، لن يخرج أي إنتاج.. ولا حرف يا ندى!

اكتبي فقط.. احصلي على فكرة متماسكة مترابطة في وقت لاحق، يمكنك فعل كل ما تريد به بعد ذلك، ولكن ليس قبل أن يكون أمامك نص مكتوب يمكن التعديل فيه.. الكتابة تأتي بكتابة يا ندى.. تلك هي القصة.

سأرسل لك كُتبا ستساعدك في الدفعة الأولى، على رأسهم كبيرهم الذي علمنا القراءة، كتاب «لغز السطور» لأحمد خالد توفيق، وكتاب «رسائل إلى روائي شاب» لماريو باراغاس يوسا، «الروائي الساذج والحساس» لأورهان بومق، «الحكاية وما فيها السرد» تأليف محمد عبد النبي (مبادئ وأسرار وتمارين)، وكتاب «أكثر من ٣٨ خطأ في الكتابة القصصية» (وكيف يمكن تحاشيها) لمؤلفه جاك م. بيكهام..

في هذا الكتاب الأخير بالتحديد، يقول لك جاك في صفحاته الأولى: «إن كنت جادا في حرفة كتابة القصة، فلا تخرع لنفسك أعذارا أبدا، إذ لن تسمح لنفسك أن تقول إنك متعب جدا، أن تؤجل العمل لوقت لاحق، ألا تستطيع أن تعمل لأنك مشغول جدا في الوقت الحاضر، أن تنتظر حتى يأتيك الإلهام، أو أن قصتك دون المستوى».. يقول الكاتب في سطورهِ تلك، أن الكتاب يكتبون وغيرهم يصطنعون الأعذار، وفي الكتاب أيضا يقترح «جاك» أداة بسيطة تساعدك على تحاشي الوقوع في شرك اصطناع الأعذار، اذهبي وابحثي عن تقويم سنوي، على كل ورقة كل يوم منه مساحة صغيرة بيضاء.. اكتبي في نهاية كل يوم بتلك المساحة شيئين؛ الأول عدد الساعات التي قضيتها وأنت تكتبين، والثاني عدد الصفحات التي أنجزتها.. الموضوع يا ندى ليس سهلا، صحيح.. لكنه عن تجربة يستحق.

في كتاب «الحكاية وما فيها» لمحمد عبد النبي أيضا، يخبرك بكل ما أوتي من حب عن الكتاب، أنه عليك فقط ممارسة الكتابة الحرة يوميا، على مدار أسبوع، كل يوم لمدة ربع ساعة فقط، كأنك في ماراثون، وتريدين تحقيق رقم قياسي في إنتاج عدد الكلمات خلال هذه الفترة.. اهزمي خشيتك من السطحية أو السذاجة. لا تفكري، اكتبي وحسب، واكتبي كما لو أنك شخص آخر.. كتاب عظيم أنصحك به جدا..

الخلاصة يا ندى، علمتني كل تلك الكتب أن الكتابة، لعبة ممتعة، ولكن يجب ممارستها بمنتهى الجدية.. أتمنى أن يصلك الشغف نفسه الذي يملأني عن فعل الكتابة.. فعل التحرر والحرية..

وإليك ما وصلت إليه في كتابة مسرحيتي الجديدة.. ما رأيك لو تجربين الكتابة من وحي ما تقرأين فيها، «يلا ابدأي»..

سأكون دوما في انتظارك..

كانت أطول رسالة من حسن عن المرات الأخيرة، اهتمت جدًا بكل حرف فيها، ووجدت أغلب الكتب التي أرسل أسماءها، بصيغة الـ pdf فحملتها على هاتفها لتقرأها تباغًا.. غمرتها مشاعر امتنان لحسن، للمرة الأولى تتحرك لفعل شيء يناسب روحها.. بفعل فاعل لطيف.. اسمه حسن.

وجدت نصه أجمل مما توقعت، وجدته كاتبًا موهوبًا فعلا، ولكنها أثرت أن تتريث قبل أن ترد عليه هذه المرة.. كانت تفكر في شيء يجعله فخورا بها.

لكن منار أخبرتها في هذا اليوم حين تحدثنا على الهاتف، أنه ما عليها إلا أن تفخر لنفسها، وألا تفعل ذلك من أجل أحد، مهما كان..

لم تكن منار مهتمة بالكتب بقدر اهتمام ندى.. لكنها كصديقة مخلصه كانت تبحث لها عن كل ما يقربها لحلمها، على الفيس بوك لمحت عنوان ورشة للكتابة عنوانها «ونس الحكايات»، على الفور أرسلت لينك الورشة.. طلبت منها أن تسأل عنها وتجرب الانضمام إليها.. علها تجد فيها شيئا مفيدا، والاسم وحده كان كفيلا أن تفعل، لطالما كان الضي الذي سارت وراءه في دروب رحلاتها.. الونس.

أرسلت لها «زهراء» مديرة الورشة تسألها عن سبب التحاقها مع المجموعة وعما تبحث عنه، ردت ندى:

- أحب القراءة ولكنني جئت أبحث عن سُبل تقريني للكتابة أكثر. في الحقيقة أتمنى لو تعلمت كيف أكتب مشاعري وقصص جدتي وأضغاث أحلامي.. أكتب عن كل ما يدور حولي.. وتوسمت في اسم ورشتكم أن تكون بها ضالتي».

في غضون دقائق كان عند ندى كل تفاصيل الورشة، تكاليفها، عدد المحاضرات، ومكان اللقاء.. ووسط كل ذلك، لم تنس إرسال سطور خاطفة

لحسن:

- «تعلمت البخل منك.. ولكنني سأخبرك قريبًا بمفاجأة.. كن بخير. سلام».

في موعد المحاضرة الأولى، شعرت وكأنها في اليوم الأول بالجامعة.. أناس جدد، أحاديث أخرى من أشخاص يحبون الكتب مثلها.. أرواح جاءت مثقلة، تنشد التخفف، وقلوب ترى في الاختلاف فرصًا عظيمة للائتلاف وخيوطًا ملهمة للكتابة عن كل شيء.

تأنقت ندى للمحاضرة الأولى، كان الميعاد مناسبًا لكي تلحق به بعد إنهاء يومها في الجامعة.. الخامسة عصرًا.. وخريف لطيف في أواخر أكتوبر يكمل بهاء الحالة بالنسبة لها.. المكان وسط البلد، واحد من أحب الأماكن لها، السير بين البيوت القديمة يشعرها بالزهو والراحة وكان لها شخصًا تعرفه كان يسكن أحد تلك البيوت.. تنظر إلى المباني في فخر.. كان اللقاء حميميًا بالقدر الذي أشعرها بالألفة مع المكان والصحة فيه.. عرفتهم زهراء بعضهم؛ ١٠ أشخاص في الحجرة كلهم بالشغف نفسه للتجربة ولل كلام والكتابة.. كانت زهراء لبقة، روحها تطغى على الجلسة. وابتسامتها الآتية من الصعيد وتعطيشها حرف الجيم، يمحيان كل آثار ارتباك مقابلة اليوم الأول.. درست الأدب الإنجليزي لكنها أحبت الأدب كله، بسبب حالة اكتئاب لعينة فكرت في الخروج منها بالتواجد مع آخرين يتشاركون أحلامهم معًا عن كل ما يخص الكتابة، قرأت كثيرًا في القصص القصيرة والروايات وصارت ملمة بالفوارق بينهما، تُطلعهم بانسيابية عن أبطال النصوص، وكيف نخلق لهم ملف معلومات، وكيف هي الحبكة، وما التصاعد في القصة، وكيف أن القصة القصيرة أصعب فنون الأدب، تعطيه ملامحًا لشكل محاضراتها السبعة معهم.. وكيف أنه سيكون هناك -كل نصف ساعة تقريبًا- تدريب للكتابة، عن أي شيء ستطرحه هي.. وكانت متعة ندى بدأت بالفعل.. كلام حسن تسمعه بالملي.. الكتابة من أجل الكتابة.

انجذبت ندى إلى محاضرات الونس سريعًا.. وارتبطت بأصحاب الرحلة، إيمان ونهلة وندى ولىلى ونيرة وإيناس ومراد وأحمد أصغر فرد بينهم لديه ١٥ سنة وفي طريقه لإنهاء عمله الأدبي الأول.. لكل منهم كانت حكايته التي أوسعت العالم أمام ندى، فالحياة بها أشخاص آخرون حقيقيون لا يتخفون وراء الشاشات..

لكنها لم تنس أن لولا منار ما كانت بينهم الآن تأخذ هذه الخطوة المهمة في حياتها.

في أحد التدريبات المطلوب إنجازها بالورشة، قررت أن تكتب عن منار في نص متخيل أقرب للحقيقة عن تفاصيل لا تنساها أبدًا معها، غيرت فيها الأسماء إلى مريم وسهيلة.. وأبقت على الحكاية كما هي.. خوفًا من أن يحسدها الموجودون على محبتهم..

«اليوم عيد ميلاد مريم الثلاثون.. لا تنتظر يومًا في حياتها أهم منه.. لم يكن يهمها الاحتفال به، بقدر ما يشغلها كيف سيتبارى أصدقاؤها في إسعادها.. هم كل زادها في رحلتها.. يعلمون أنها تحب المفاجآت كثيرًا.. وأنها ما زالت طفلة عالقة في حياة قد تسعدها فيها بضع بالونات ملونة..

منذ أيام كتبت على صفحتها أنها تمننت لو كانت هديتها هذا العام جوابات.. فقط مجرد جوابات.. حتى أنها تخيلت تفاصيلها وشكلها؛ رائحة عطر الياسمين تفوح منها. ورقتها صفراء لا سطور بها، مرسوم بأطرافها وردات حمراء وأخرى بيضاء.. مكتوب فيها كل ما تحب أن تقرأه في يوم ما عن نفسها.. أحببت أن تقرأ كيف يراها أصحابها ومعارفها الذين حتى التقوها صدفة.. وكيف هي أشكال خطوطهم على الورق.. وكيف أنها ستبقى في الذاكرة بفرض قوة المحبة الجبرية ضد أي نسيان..

هكذا أعلنت عن حلمها ببساطة ونسيته.. أو تناسته.

مريم شخصية مبهجة محبة للحياة.. لا تُحدث الأجزان بها أثرًا كبيرًا.. عكس ما تفعله مسببات السعادة لها.. حتى لو كان كأس آيس كريم مثلج مزين بقطع الفاكهة أو قطعة كيك بصوص شيكولاتة ساخن.. قد يبقى ذلك على قيد الأمل والسعادة أيامًا وأيامًا.

وكانت سهيلة تعرف ذلك عن مريم جدًّا.. وتتفنن في زيادة واحدة من مسببات السعادة لمريم كل عيد ميلاد

ودونا عن كل الأصدقاء.. تنتظر مريم هديتها بفارغ شوقها وبحماس كل أطفال الحي الذي تسكن..

مرت أيام وسهيلة تفكر فيما تنوي أن تفاجئ به مريم.. حتى جاء يوم عيد الميلاد..

عزمت سهيلة مريم في منزلها مدعية ضيق الوقت والظروف لشراء هدية مناسبة.. وأنهما ستكتفیان بتورته صغيرة.. وشمعة وأمنية.

تضحك مريم بخباثة وهي تقول «اطلعي من دول هديتي فين، استحالة أصدقك».

كانت تعلم أن سهيلة قد تفوت أي شيء معها إلا يوم عيد ميلادها وهديته.. هكذا ظلت تفعل طوال سنوات معرفتهما..

ابتسمت سهيلة وهي تشاور بعينها عند ورقة ملفوفة بفرع وردة من القماش. تحكم غلقها كي لا يفتحها قبلها أحد..

جرت مريم إلى الورقة.. «إنه جواب تماما كما تمنيت».

ليس هناك أجمل من أن يهاديك الله أصدقاء ينسجون من خيالك، ويجعلون هلاوسك أمراً..

فتحت مريم الجواب وظلت تقرأه وهي تضع يدها على قلبها وكأنه سيقفز من مكانه حالاً فرحاً بالمكتوب.. وفي آخر الجواب ذكّرتها بالمرّة التي كانت تتحدث عن أمنيّتها في أن ترتدي فستاناً زهرياً واسعاً يدور.. وتصورها به مصورة محترفة.. كإحدى عارضات أزياء المحجبات الأنيقات..

«اتبسّطي يا مريم بعد ساعة تقريباً ستكون بين يديك مصورة محترفة ستأتي خصيصاً لتصوير معاليك.. ليس هذا وحسب.. ادخلي غرفة نومي.. استأجرت لك فستان أحلامك الزهري.. أدعو الله أن يكون مقاسك لأن فلوسي حلال والله.. استعدي حالاً.. جاري تحقيق واحد من أحلامك وفي انتظار تنفيذ البقية».

كانت تكتب عن منار بحفاوة وهي ممتنة إلى الله أنه منحها إياها كواحدة من نعمه عليها في الدنيا.

في الورشة أيضاً تعرفت إلى فتاة ثلاثينية اسمها إيمان، فنانة تشكيلية لديها مشروعها الخاص الذي ترسم وتبيع منه، ليست متزوجة أيضاً ولم تلق بالآ لتلك القصة عكس ما فعلت هي، شغلها حلمها وسعيها وراءه بأن يصبح لها ماركتها الخاصة التي تُخرج فيها طاقتها، وجاءت تبحث عن حلم جديد في الكتابة التي تعتبرها متنفسها الآخر بعد الرسم.. كانت ندى معجبة بلبس إيمان وألوانها وحبها للحياة رغم الحزن الكائن بين سطور نصوصها.. وتعرفت أيضاً إلى نهلة ذات العشرين عامًا، حديثة التخرج التي ذكّرتها بنفسها حينما خرجت من الجامعة بعدد لا يذكر من الأصدقاء، جاءت الورشة بحثاً عن عالم يستوعب هدوءها وصوتها المنخفض، ويقبل بأفكارها الحالمة،

سئمت انتقاد المقربين بأنها هاربة من فيلم قديم تنتظر الأمير فيه على حصانه الأبيض، نعم كانت أغلب نصوصها عن الطبيعة والشوارع والشجر، عن البحر وأمواجه.. عن حلم الأمير وحصانه الأبيض.. يكفيها أنها جاءت تتعلم شجاعة البوح عما تراه وتشعر به. علمتهم زهراء ألا يحكموا على ما كتبوا.. أن يكتبوا كما لو كانوا أشخاصًا آخرين.. أن يتقبلوا نصوصهم مهما كانت بشاعتها.. أو عاديتها حتى..

أحبت ندى فعل الكتابة.. الموضوع خرج أخيرًا عن مجرد الخواطر، لم تعد تستخدم ضمير المتكلم كثيرًا.. صارت تكتب كأنها الراوي.. تكتب كل يوم تقريبًا كما اتفقوا في الورشة.. وآخر اليوم ترسل لزهراء محاولاتها..

كانت مشغولة كل يوم أيضًا بأن تفتح بريدها لترى ماذا أجاب حسن بعد رسالتها الأخيرة عن المفاجأة التي أخبرته عنها.. لم يجب من وقتها، شعرت بالخل حين قررت إرسال رسالة أخرى:

- «أين أنت؟».

في الأثناء نفسها كان حسن في البلد مع أمه، منشغلا بتعب مفاجئ لها، لم يكن يفعل أي شيء الأسبوع الماضي سوى الجلوس إلى جوارها، يحكي معها عن ذكرياتهم في بيت العيلة هنا ببني سويف، وعن أساطيره اليونانية التي يقرأ، يعلم أنها لا تفهم شيئًا منه، لكنها تسعد لفكرة جلوسه جوارها.. يؤرقها أنه قارب الأربعين ولم يتزوج، يرفض دائما كل عرائس البلد اللاتي تحدثه عنهن.. ويخبرها بصبر وبقبلية على يدها أن الأوان لم يأت بعد.. تبكي وهي تسمعه جمل الدراما الشهيرة:

- «نفسي أشوف ولادك يا حسن»..

فيضحك ويأتي لها بابن أخته الذي يلعب في فناء الدار، ويقول لها ممسكا به:

- «حلو ابن سعاد أهو افرحي بيه، بلاش نكد يا أمي، تيجي أقرالك حاجة جديدة هاتتعرض قريب؟».

تسمح دموعها وهي ترد عليه:

- «يعني وهو أنا بفهم حاجة بدمتك يا حسن عشان تقرالي؟!».

- «وهو المطلوب يا أم حسن عشان تحرمي تكلميني في القصة دي ثاني».

يضحكان معًا، ويختبئ في حجرها وصوت دعائها له براحة البال وال خاطر، يفصله عن العالم وما فيه.

الرسالة السابعة: من ندى

في الليل ترسل ندى رأيها في مسرحيته، وتتكلم من تلقاء نفسها عن المفاجأة وعن الورشة متجاهلة غيابه:

- لا أعلم فيما اختفاؤك ولكنني أدعو الله أن تكون بخير.. المهم أنني جئتك الآن بردي على نصك الجميل. أنت موهوب جدًا يا حسن.. وعملت بنصيحتك وكتبت نصًا مستوحى مما كتبت أنت.. اقرأها وأخبرني رأيك، ومهلا في الحكم علي.. فما زلت أحبو في محاولاتي الأولى..

أما عن المفاجأة، فهي أنني لم أتشجع لفعل لذلك إلا بعدما التحقت بورشة عن الكتابة، إنها ورشة غاية في الجمال يا حسن.. أشعر وكأنك كنت في يوم تعرف زهراء، تتحدثان عن الكتابة بالروح نفسها.

في الورشة نكتب كل يوم عن كل شيء، وتعرفت إلى أصدقاء رائعين، فأصبحت أنتظر يوم المحاضرة بفارغ شوقي وصبري، أنهيت حتى وقت رسالتي تلك أربع محاضرات وبقا أربع أخرى، جميل أن نستيقظ من نومنا لمهمة ما ننجزها، ثريا أيضًا أصبحت تدعو لي كثيرًا تلك الأيام، عادت تخطط بعض الملابس للجيران، تفعل ذلك عندما تكون هادئة البال، يبدو أنها ارتاحت لفكرة خروجي من البرنامج..

تخبرنا زهراء أن في نهاية الورشة، سيكون لكل منا نصه الأدبي المستقل كنموذج مشابه لمشروع التخرج، أعجبتني الفكرة ومتحمسة جدًا لها.

أتمنى ألا يطول اختفاؤك أكثر من هذا، أنا التي أنتظرك هذه المرة يا حسن.. لدي الكثير لأحكيه لك».

قرأ حسن رسالة ندى بعد أيام من إرسالها، للمرة الأولى ينتبه إلى أنها أخيرًا صارت لها حياة، سبب تستيقظ من أجله كل يوم كما قالت.

خطرت بباله فكرة كان يعلم سوء وقعها على ندى، لكنه تحدى نفسه أنها ربما كانت الأفضل لها الآن، فكر في أن يطيل اختفائه، كي لا تعتمد على العابرين في حياتها كما تفعل، هو بالنسبة لها شخص من عالم كانت عالقة فيه من أسابيع مثله مثل غيره، أعجبتة فكرة أن تستقل بحياتها وأن تقود هي كل شيء فيها.. أعجبتة دائرة الأصدقاء التي اتسعت ملء أيامها.. أعجبه جدًا النص الذي كتبت.. مرتب ولسلس وكلماته بسيطة.. أكملت من خيالها تفاصيل جديدة لبطل المسرحية.

فكر أيضًا على سبيل التشجيع، أن يضيف ما كتبت لنصه، على أن يعلن لها ذلك في الوقت المناسب، ولكنه كان حائرًا بين أن يترك لها رسالة أخيرة مؤقتة، أم يستمر في اختفائه؟ فضل القرار الأصعب، ليسمح لها بخلوة مطولة مع روحها، وتجارب حقيقية لبشر لا يختبئون وراء شاشات، تشعر بهم ويفعلون..

يضعفه فقط أنه شعر للمرة الأولى أنه يفتقد رؤيتها أمامه بطرحتها البيضاء منكبّة على هاتفها تناكف خلق الله الذين تحدثهم منه..

أسبوعان آخران يمران، ندى تذهب للمكتبة والورشة، تسحبها الدنيا الجديدة كطفل يركض وراء بالونات مبهجة غير مبالٍ بأحد، تَبَقَّت لها محاضرة واحدة.. كتبت نصًا جديدًا، أخبرتها زهراء أنه متماسك جدًا لكي يصبح قصة قصيرة، غير أنه ينقصه فقط قليل من التشويق، فتعدل عليه مرارا بكل ما أوتيت من شغف، لا عيب في التعديل طالما لدينا نص مكتوب، هكذا تعلمت.. كانت سعيدة بالتجربة، وبأصحابها الجدد.. خرجوا مرتين في تجمعات خارج مكان الورشة، لمحت نظرات إعجاب من أحد ضيوف دفعة أقدم منهم للورشة انضموا إليهم مرة، على إثر دعوة من زهراء، في المرات التي كان يوجه حديثه لها، أو يسمعها تتحدث، كان يطيل النظر إليها مبتسما، لكنها لم تشعر تجاهه شيئًا..

فكرت في ذلك كثيرًا وكيف أنها الآن لا تقبل بأية تلميحات وهي التي كانت تتمنى حدوث ذلك من شهر واحد فقط، لكنها عرفت أن احتياجها لوجود شريك، كان سيجعلها تقبل بأي أحد كما كانت تبحث على البرنامج.

وعلى كل، فقد زادها هذا الأمر ثقة في نفسها بلا شك، خصوصا وأنها المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها مرغوب فيها، في عالم حقيقي تجمتغ فيه الصورة والروح والأفكار.. ومع إحساسها بالرضا.. تفتقد رسائل حسن..

الرسالة الثامنة: من ندى

«كيف حالك يا حسن.. هل أصابك مكروه؟ يا ليتنا تبادلنا أرقام هواتفنا، يقلقني اختفاؤك، سأتخيل أنك بخير، سيجعلني ذلك أفضل، ولو أن تجاهلك يغضبني أكثر، في الحقيقة لا أفهم ما يدور.. انقطعت أنت عن مراسلتي دون سبب واضح، وبالصدفة منذ أكثر من أسبوعين لم أعد أرى الشاب الأسمر الهادئ الذي كان يزور المكتبة بانتظام وحدثك عنه.. ذاك الذي سميت به «غريب» وكنت أكتب إليه ووعدتني أنت أن تحل محله إن خرجنا من البرنامج.. وأخلفت وعدك يا حسن!

بالغباء نفسه، لم أبحث عنه، ولم أسأل عن رقمك أو عن أي طريقة للوصول إليك..

لماذا لم نفعل ذلك؟! أشعر أنني بحاجة إليك، أحتاج إلى مشورتك، أن أطلعك حتى على نصي الجديد، قرأت الكتب كلها التي أرسلتها لي، كانت عظيمة جدًا، ألن تأتي لتناقش فيها؟ ولم تخبرني عن رأيك فيما أرسلته يخص مسرحيتك؟ كل الأشياء المهمة تحدث لي بسببك وأنت لست هنا، أترى هذا منطقيًا؟

ما زلت في انتظارك.. طال غيابك يا حسن، عد أرجوك..».

في الحقيقة كان يفتقدها هو أيضًا، ولكنه تماسك قدر استطاعته كي يكمل فكرته في اعتمادها على نفسها، ومع توتر اختفائه فكر لو يدخل السرور على قلبها الغاضب بمفاجأة غير متوقعة، فقد انشغل مؤخرًا بإنهاء مسرحيته التي تشاركها فيها.. وكانت هي المفاجأة نفسها التي قرر أن يصلحها بها!

في أول الأسبوع، كانت تنهي مهامها في المكتبة بروتين أكثر صبرًا عن الأيام الماضية، بعدما اتسعت روحها لتفاصيل أخرى أصبحت تحبها مؤخرًا، كإنهاء تدريباتها الكتابية المطلوبة منها، أو تعديل في نصوصها بالشكل الذي كانت تطلبه منها زهراء..

وقبل أن تلم أغراضها لترحل، وجدت أحد عمال النظافة يدخل عليها بصندوق أسود متوسط ملفوف بشريطة ستان روز، أخبرها أن شخصًا جاء عند باب

المكتبة طلب تسليمها لها يدا بيد، وترها الموقف كثيرًا، فهي التي لم تستلم أي هدايا من قبل بتلك الطريقة. من فضولها وفرحتها أيضًا لم تفكر كثيرًا في المرسل وهي تسرع في فك الشريطة بلهفة أنارت وجهها، وما إن رفعت الغطاء ولمحت اسميهما معًا، كادت تفقد صوابها من فرحتها.

«أولاد الزناتي» - مسرحية من تأليف حسن السيوفي - شاركت في الكتابة ندى إبراهيم.

لم تفهم ما رأته، وحتى وهي تحاول التقلب في الورق المكتوب، إلا عندما قرأت الجواب المرسل في الصندوق:

- «مشاركتك كانت أجمل من أن تُحبس في نوت وردي.. لديك أكثر من ذلك بكثير..»

- آسف للاختفاء سأخبرك لاحقًا.. أتمنى لو كان ذلك كافيًا - مؤقنًا للاعتذار..»

عادت لتتظر في الورق مرة أخرى تقلبه واحدة وراء الأخرى، حتى لمحت الجزء الذي كتبه لتشاركه خواطرها عن بطل الرواية، وجدته مكتوبًا بالتصور نفسه، غير أنه حوله بطريقة السيناريو والحوار.

خضتها المفاجأة.. إنها المرة التي تلمح اسمها على الورق مكتوبًا، ندى إبراهيم.. وكيف عَرَف اسم والدها، وهي لم تذكر أنها أخبرته به؟! زاحمتها الأسئلة وأربكتها فعلته ولم تفكر في أي إجابات منطقية..

اتصلت بمنار على الفور تخبرها بصوت حماسي:

- «النهاردة أسعد يوم في حياتي. أنا بقيت كاتبة واسمي اتكتب على مسرحية.. كتب لي: شاركت في الكتابة.. تخيلي؟!»

ايوا هاجيلك نحتفل طبعًا ونرغي كثير قوي. حسن جميل قوي يا منار..»

حملت الصندوق بين يديها تحضنه لا تصدق ما فيه، تركب المترو. وتضمه أكثر كي لا يهرب مثلًا، وتشمه بين الحين والآخر، كأنها تشم للفرحة رائحة أقرب لنسائم اللافندر.. نسيت اختفاءه بالتأكيد.. هي كل ما في الأمر. تريد لو تقابله الآن.. لو كانت تعرف شكله.. مكانه.. من أين جاء لها، أو من أي الأحلام التي تمت يومًا، خرج!

وصلت البيت وضعت حقيبتها والصندوق على كنية الصالة، وقبّلت الجدة وهي تجلس على ماكينة الخياطة، كما لو لم تتقابلا منذ أيام..

- خير يا ست ندى لم أركِ سعيدة هكذا منذ فترة.

أرجوك لا تخبريني أنه البرنامج اللعين نفسه وشخصا آخر يجر إليك خيبات أثقل.

- لا يا تيتا... اطمئني.. لم أفعل منذ وعدتك ووعدته..

- من هو إن شاء الله؟!

- أقصد يعني منذ وعدتك أنتِ ومنار بأني لن أدخل عليه.. المهم هل تذكرين ورشة الكتابة التي التحقت بها منذ فترة؟ كل ما هنالك أنني بدأت أجنبي ثمارها، ولم أكن أتخيل أنني سأحب الكتابة بهذا الشكل، وأرى اسمي مكتوبًا بتلك السرعة، لمحت حروف اسمي إلى جانب بابا يا ستو كما لم أتذوق لهما حلاوة أجمل من ذلك أبدًا.. ندى إبراهيم... هل كنتِ تتخيلين يا تيتا بدمتك أنني قد أفعل في حياتي شيئًا مهما غير المكتبة؟

- مبروك يا ست البنات.. يهنا الله الخير طوال رحلتنا، ويُعدل لنا مسارها أكثر من مرة لخير أكثر.. ويسعدني أنكِ تفعلين ما تحبينه أخيرًا.. بتوجيه من الله حبيبتي..

أراكِ في مزاج جيد تلك الأيام وهو الأهم عندي، كما يمزجني كذلك صوت الست الخارج من غرفتك ليلاً.. أم كلثوم تأتي في الحال الرايق.. ولا إيه يا ست البنات؟

تبتسم ندى وهي تحيط الجدة بكلتا يديها:

- «إنها فقط دعواتك يا ستو.. أدامك الله نعمة في حياتي».

دخلت غرفتها ومعها صندوقها المحبب، تستجمع شجاعته لترسل له عما حدث.

الرسالة التاسعة: من ندى

«يا حسن. لم أعرف أن زعلي غالي بهذا القدر.. يا ليت كل المشاعر الغاضبة يذيبها ما تفعله أنت بتلك الطريقة.. كيف عرفت طريقي؟ أذكر أنني

أخبرتكَ في كلامنا عن وظيفتي، ولكن أكان البحث عني سهلا لهذا الحد؟ لا يهمني غير أنني سعيدة لما قدمته لي من لفظة تشبه محبة روحك.

لم أعد غاضبة من اختفائك.. ولكنني متلهفة أكثر لاحتفائك بي.. متى ستُعرض تلك المسرحية؟ وأين؟.. أريد جدًا حضورها.. الحقيقة أنني أريد أكثر رؤيتك أنت.. أصار ذلك وشيكا؟».

في الجلسة الأخيرة بالورشة.. قرأت ندى بصوتها نصها الأخير الذي كتبه على مسمع كل الحضور، فقد كان جزءا من التدريب أن يتعودوا على قراءة ما كتبوه بنبرات صوتهم وما خفي فيها من مشاعر.. قرأت:

- منذ صرنا نتحدث بالأمس القريب.. صرت لا أرى عالما يساع أحلامي.. إلا عندك.. هنا بين سطور كلماتك.. ألتمس بينها طريقا لم أكن لأحلم بالسير فيه بمفردي.. أشعر بأن أشياء كثيرة على وشك أن تصبح بخير.. فقط لأنك هنا، تشاركني كل مساحات الونس والبراح.. أنسى تفاصيل كانت تؤرقني بشدة في أيام مضت، عندما ألمح اسمك في خانة الرسائل إن تكلمت علي بإحداها.. أصبحت زادي للرحلة.. تعلقت بها.. كغريب اعتاد قوت يومه من أهل كرم في المدينة.. وصرت كالدرويشة أبحث عن أثرك بين سُكاتها.. كنت أحب سماع ماجدة الرومي وهي تغني أنها متعبة جدًا من قصص الحب وأخبار الغرام وأنها محتاجة جدًا لميناء سلام.. والحقيقة أنني لا أملك الآن أجمل منك بعد ثريا ميناء سلام».

وجدت نفسها دون أن تدري تكتب عنه وعنهما.. لم تترجم ما تشعر به معه وهي التي لم تره من قبل، رفضت بينها وبين نفسها إعطاء القصة أي صبغة محددة ولا حتى في كلامها مع منار.. لكن منار كانت تلحظ لمعة في عينيها ورعشة فريحة في صوتها، كلما جاءت سيرته..

في الورشة، كان اليوم أشبه باحتفال صغير لختام الجلسات الودية التي التقوا فيها على مدار الشهر ونصف الشهر.. هاداهم أحمد أصغر عضو في الشلة، بزهور وردية جميلة، تذكارة محبة.. وسلمت زهرة كل واحد منهم رسالة، ملفوفة بشياكة كرسائل زجاجات البحر.. كتبها لبعضهم البعض.. دون إمضاء الاسم.. لتظل الرسالة في معناها.. لا في صاحبها.. فكانت رسالة ندى كالآتي:

- «لديك أكثر بكثير لتعطيه.. لديك عطاء وحنان لن ينضب أبدًا.. وابتسامتك حلوة تجعل اليوم أفضل بكثير، لا تتوقفي عن منحها للمارين في يومك»..

في قوانين اللعبة، لكل فرصة في محاولة توقع من الرسائل.. كلهم حاولوا.. إلا ندى.. أعجبتها الفكرة والرسالة كما هما.

اتفقوا ألا يتوقفوا عن التواصل، وأن تستمر الكتابة حاضرة بينهم.. على الجروب نفسه الذي أنشأته زهرة لهم على الواتس أب منذ أول محاضرة.. وأعلنت لهم مفاجأة قبيل رحيلهم، أنها بصدد نشر مجموعة قصصية من أعمال شباب ورشها السابقة، وأنه ما زال هناك فرصة لقصة او اثنتين للنشر في المجموعة.. باركوا لزهرة الخطوة، وباركت ندى.. وحلم جديد يداعبها..

شيء واحد أصبحت ندى تحلم بحدوثه، لأنها منذ سنوات عمرها الـ ٣٥ لم تكن تفعل شيئاً سوى الانتظار، انتظار أشياء لا تعلم عنها شيئاً.. هي الآن تتمنى لو تشعر بحلاوة الوصول.

وبعد عدة رسائل أخرى لم يجب عليها حسن أيضاً، لم تثقل عليه برسائل جديدة، فشعور بالكرامة حل ضيقاً مرحباً به بعد محاولات مستميتة في فهم أسباب الاختفاء.. فرضيت بسكوته غير المفهوم.. غير أن فضولاً ما دفعها لأن تفتح البرنامج بعد ثلاثة شهور تقريباً. لم تحذف الحساب لكنها أغلقت ملفها الشخصي عليه، فلا يمكن لأحد العثور عليها فيه، فتحته لا لشيء سوى لقراءة بعض المحادثات التي لم تُحذف لأسباب كثيرة، منها مثلاً أن أحدهم أحب الاحتفاظ بها أيضاً..

كانت تشعر بأن كل عابر هنا. ترك بها شيئاً كما أخذ.. ترك فيها تمسكا وصبراً وإيمانا بأنها تستحق الأفضل.. ترك فيها خيالا خصبا للكتابة عن عشرات الأشخاص هنا.. الفكرة برقت في مخيلتها فجأة، لكنها لم تكن مختمرة.. فكرت ماذا لو كتبت يوماً من وحي حكاوي هؤلاء.. كأحد تدريبات الكتابة اليومية المعتادة مع زهراء وونس حكايتها.. لم تكن على يقين أنها تستطيع، غير أنها سعدت بمجرد فكرة الاستفادة من الحديث مع العابرين هناك.. ولو بالكتابة عنهم.

خافت ندى الركون إلى نفسها مرة أخرى بعد انتهاء ورشة الكتابة، تذكرت حكمة حسن «نفسك إن لم تشغلها بالحق»، عادت لتبحث عن ورش أخرى تلتحق بها، فانحازت لحلمها القديم، الرسم بألوان الزيت، وذلك حين دلتها صديقتها إيمان الفنانة التشكيلية الملهمة التي تعرفت عليها في «ونس»، على متعة جديدة تزيد حياتها بهجة، متعة الرسم على الأقمشة، ولم لا وهي التي تتنفس الألوان وكانت تشعر معها دوماً أنها بخير، مؤخرًا لم تعد تبخل عن نفسها دفع أي مبالغ مالية في سبيل تعلمها شيئاً جديداً، حتى الجدة لم

تعد تُسمِعها جملا مثل «شيلي قرش لبكره».. فصارت تفكر في الاستمتاع باليوم وما يليه.. أَلهاها هذا عن التفكير في رسائل حسن.. لكنها لم تنس يومًا صاحبها.

إيمان زارت ندى مرة في بيت ثريا بعد انتهاء إحدى جلسات ورشتهم الجديدة، خصوصا وأنها اعتادت توصيلها كل مرة بسيارتها.. فعزمتها ندى في بيتها، حسب الأصول أولا، ثم لتربها كيف غيرت في ديكور حجرتها ثانيا، وتشاركها أدوات رسمها، التي دفعت فيها مئات الجنيهات عن طيب خاطر.. غير أن إيمان كانت متيمة بالكلام مع الجدة ثريا بعيدا عن غرفة ندى.. فاللجذات رائحة البركة في البيوت.. فرأت كيف تحب خياطة الملابس للجيران. وكيف تعامل ماكينتها «السينجر» كأنها ابنتها المدللة، تعطيها الزيت كأنها تعطرها، لتظل في أحسن حالاتها جاهزة دائما للخياطة دون ملل أو ضجر..

وبحس سيدات الأعمال، اقترحت إيمان مشروعًا من وحي اللحظة:

- «إيه رأيك يا ندى، ترسمي معًا، ونطبع على القماش من أفكار رسوماتنا، وتخيطن لنا ثريا بأيدها الحلوة وأسوق أنا على صفحتي؟».

صفحة إيمان عليها ما يقرب من ٢٠ ألف متابع وهو رقم ليس بهين في سوق التسويق الإلكتروني، خصوصا للمبتدئين، تبع عليها المجات المطبوع عليها يدويًا، والنوت بوك، والأكسسوارات أيضًا المصنوعة يدويًا، لكن ندى ترددت قليلا وقالت لها:

- قاعدة واحدة مع ثريا تسببت في زلزال أفكار مدو، ومشروع وقماش ورسم؟ اهدي يا بنتي الله يكرمك.

- هكذا تبدأ خطوات النجاح يا ست ندى، جرأة دون تردد، ثم إنني أحب رسمك جدًا وأثق فيه ولن أطلب منك إلا التجربة، «ها، قولتي إيه؟».

تحمست ندى للفكرة رغم خضتها منها، لكن إيمان طمأنتها أنهما ستختاران الموديلات السهلة في التفصيل، التي تناسب الموضة الحالية، كالكارديان، أو الأقرب إلى الكيمونو الياباني، والجيبات الواسعة.. أو القمصان الفضفاضة.. لكي تسهل على ثريا الفكرة..

قالت لهما ثريا وهي تسمعهما:

- أتحدثان جدًّا إذن؟

قالت لها إيمان وهي تذهب للجلوس إلى جوارها:

- جدًّا طبعًا.. ما رأيك يا أم يد ذهبية؟

ردت الجدة وهي تعيد الماكينة إلى ركنها المعهود وتغطيها بمفرشها اليدوي الأنيق:

- الأمر يستحق التفكير.. لكن القماش الذي أهدره في التجربة حسابه عليكما.. موافقتان؟

- أهذا ما يقلقك، ولا يهملك طبعًا كله من يدكٍ خير كثير والله يا تيتا.

- ولكن لدي شرط، أن تتعلم ندى الخياطة معي.

إيمان قالت بحماسة:

- الأمر ليس قيد الاختيار يا تيتا، ستتعلم بالطبع لتشاركك إن تعبت يومًا لا سمح الله.. وكنت سأطلب منها ذلك من نفسي.

- لا يا ابنتي.. تتعلم مني لتكمل معك بعد رحيلي.. ما بقي لن يكون أكثر مما مضى على كل حال.. فقد أعجبتني فكرة وجودك معها وأنتِ تفكرين فيما قد يوسع رزقكما، فلم أترك لها وراثًا ولا مالا.. ولم تفعل هي في حياتها أي شيء يجلب لها دخلاً أوفر غير وظيفة حكومية لا تسمن ولا تغني من جوع.. هذا شرطي الوحيد. ها؟

قبل أن تنفعل ندى غاضبة من كلام جدتها، تدخلت إيمان سريعًا في الموقف وهي تدعي لثريا بطول العمر والصحة لتعيش وتشوف ندى رائدة أعمال قد الدنيا.. قبلتهما ووعدهما بزيارة قريبة ليتناقشن في كيفية البدء.. وتركتهما لجلسة نكد واقعة لا محال، بدأتها ندى:

- ما دخلي أنا يا ثريا بالخياطة، وما محل كلامك البائس عن الرحيل من الإعراب أصلاً؟

- قاربت الثمانين يا ندى.. كم تتخيلين من السنين يمنحني الله هدية إضافية لكي تعلمي أن الحياة لا بد أن تسير بعدي..

وأنه آن الأوان لتتحملني مسئولية حياتك يا ابنتي وتديرينها بالشكل الذي يضمن اكتفاءك بنفسك دون الحاجة لجنس مخلوق على وجه الأرض..

- وكيف تتمنين لي ما عشت أنتِ تباعدين بيني وبينه؟! تتمنين فجأة ألا أعتد على مخلوق على وجه الأرض؟! وأنا في الأصل كبرت لا أتكئ إلا على ذراعك، لا أمسك القلم إلا ويداك تغطيانه قبل مني.. أخرجتني من المطبخ كي لا يشغلني عن المذاكرة، فلم أخرج مهندسة ولا طبيبة ولم أفلح حتى إلى الآن في تحمير البصل للكشري ولا البصارة ولا في عمائل أي أكلة الحقيقة..

ملأت قلبي رعبا من الرجال فوليت منهم فرارا، باعتبارهم كائنات فضائية شريرة نزلت الأرض تنشر جراثيمها علينا.. فزادني الحرمان فضولا وصار الممنوع أعلى درجات الرغبة.. فلم أعد قادرة حتى على معرفة الرجال من أشباههم.. فتعلقت بظلالهم، أملا في الاحتماء فيهم.. من حر يوم أعيشته وحدي بعدك.. والآن تخبريني أنه آن الأوان لأتحمل المسؤولية وحدي؟ وحدي أيضا يا تيتا.. نفسي أفهمك..

بكت الجدة بحرقه.. تحشرج صوتها في البكاء.. لم تنطق إلا بجمل متلعثمة فيها:

- «أسفة وحقك علي يا بنتي».

ضمتها ندى كأم وابنتها.. كان رأس ثريا بين يديها كبركان يثور خوفا وحرنا. يهتز جسدها النحيل، وتضم ندى رأسها لها أقرب:

- «اهدئي يا ستو لم أقصد إلا الفضفضة والله، كثيرا ما نفعل، ما بك هذه المرة.. اهدئي أرجوك وإلا حكمت عليك بطيخ يدي أسبوعا لا تدخلين فيه المطبخ أبدا. وما أدراك ما أقول..

تنهدت ثريا وهي تهددها بيدها الواهنة.. وقبلتها في كتفها كثيرا..

- اسمعيني يا ندى..

بعد رحيل الغاليين.. تحملت مسئوليتك وحدي، لم يكن لي رجل يسندني بعد موت جدك، وكنت أنتِ ونس أيامي.. خفت أن تتعلقني بغيري.. رأيت تعلق أمك بأبيك كالمسحوبة على عماها، كانت تحبه حبًا غريبا أغناها عني وعن كلامها معي كأم وابنتها، كنت والله أشم رائحة ملابسها وأنا أغسلها أتخيلها

تجلس معي تحكي عن يومها.. تزوجا سريعًا ووافق جدك سريعًا، فسترة البنت بزواجها كانت تؤكد له حسن دوره في الحياة، فأنستها حياتها الجديدة السؤال عني بشكل يومي وكذلك لم تعد تزورني إلا في أوقات فراغها.. لم أغضب منها والله.. لكنها الوحدة كانت تؤلمني.. تركني جدك أولاً ورحل أمك وأبوك بعده، فوجدتك عوض الله وصبري.. خفت عليك الوقوع في الحب مثلهما.. خشيت أن تتركيني لوحدي من جديد.. وأعترف لك الآن بسوء تفكيري وأنايتي، كنت مكثفية عن العالم بحضنك كل صباح، كان العمر يزيد يومًا بصباحك والله يا ندى.. خفت حرمانى هذا الحضن يا بنتي، سامحيني..

أجهشت في البكاء من جديد، لكن ندى كانت تعرف بخفة روحها كيف تغير المواضيع وتخفف من حدتها، مسحت ندى دموع جدتها وهي تقول لها بصوت يكتم البكاء وتحاول فيه الضحك:

- «كنتي سيني أجرب يا ست ثريا، ونيجي أنا وهو نعيش معًاكي وناهد وكلنا.

فالعالم كله بدون حضنك، مكان موحش أخاف السير فيه والله.

ولكن ثواني.. ما علاقة كل ذلك والخياطة بدمتك؟».

- سأخبرك، في البداية أخطأت حين سهلت عليك الاعتماد عليّ في كل شيء بحياتك.. حتى صرت لا تجيدين التصرف أحيانًا في أتفه الأمور، كأن يجن جنونك لو طلبت منك الوقوف مع الرجل وهو يغير الأنبوبة لربما احتجنا يومًا أن نفعلها بأنفسنا.. وكبرت أيضًا لا تجيدين التفكير في تدبير مصاريفك لو لم أنظم لك جمعيات منذ تعيينك في الجامعة.. فماذا إن رحلت اليوم يا ندى؟

- أتعودين من جديد لتلك السيرة، أعجبتك حالة الدراما التي تلازمنا أكثر من نصف اليوم تقريبًا؟

- لا وقت لكلام العواطف.. اسمعي، أعجيني كلام صاحبتك إيمان وجعلني أفكر في وجود مشروع لكِ يضمن وجود باب رزق مفتوح، لربما فلتحتي فيه.. للمرة الأولى أجد لك صديقة تتحدث عن الفلوس والمشاريع والأفكار.. ما صدقت الصراحة..

خصوصا وأن الموضوع له علاقة بأمر تحببته كثيرًا، ألم تتمني يومًا دخول كلية الفنون الجميلة، وها قد أتى الله بالفنون كلها إلى بيت ثريا، فماذا نفعل إذن؟ نشغل عقلنا يا ندى.. طول عمري أحب الخياطة، جلبت إلى البيت رزقا حلالا

طيبا.. وجيرانا حلوة، ناس داخلة وخارجة وصوت حكاوي لا تهدأ إلا بعد خروجهم وهم يرددون تسلم الأيادي يا ست ثريا.. تحايلت عليكِ أعلمك حتى فقدت الأمل، وأنتِ تتحججين بانشغالك وعدم حبك للفكرة.. لا أطلب منك أن تتفرغي لذلك معي ولا أن تكون مهنة دائمة.. كل الحكاية أنني أريدك أن تبدأي معي، تجربين معي الأفكار بنفسك، ستتحمسين لإنتاجك أكثر مني.. كل قماشة ستكون عليها قطعة من روحك بألوانك ورسوماتك يا ندى.. سنساعد بعضنا حتى تتأكدي من نجاح الفكرة، من يعلم، قد يصبح لديك فريق بنات ومشروع حقيقي كبير.. «ها، قولتي إيه؟».

- سأفكر يا تيتا أعدك بذلك.. المهم أنكِ مدينة لي الآن بصينية كيكة بجوز الهند عربون مصالحة لتعكير المزاج وجلب الدراما لأكثر من ساعة متواصلة.. الوضع يطلب الآن قطعتين منها وكوب شاي بلبن وسهرة في البلكونة نختم بها اليوم.. وأظن الطلب لا رجعة فيه..

- كيكة وأحلى شاي بلبن يا قلب ستو..

استيقظت يومها التالي على صوت المنشاوي يخرج من غرفة الجدة، كعادتها الأحب منذ كبرت معها..

قبل أن تخرج إليها، ظلت مستلقية على سريرها تنظر إلى تفاصيل لوحاتها المرسومة على جدران الغرفة.. عشرات السنين وهي ترسم في أوقات الحزن والوحدة.. والنشوة أحياناً.. وضعت في كل رسمة ثانياً روحها، كانت تنسى فيها أنين وحدتها.. فكرت في أنه آن الأوان لحدوث تغيير جذري في حياتها.. من شهور ظنت أن التغيير رجل.. لكنها اليوم تدرك غير ذلك.. وأول ما جاء في بالها، التفرغ لكل شيء كانت تحبه.. وعطلها عنه الوظيفة الروتينية الحكومية التي تركز عليها كل يوم دون جديد.. هل تستقيل من المكتبة، أو تقدم على إجازة دون مرتب مثلاً؟ هل يمكنها مواجهة الجدة بمثل هذا القرار الذي قد يمنع عنها الدخل الثابت لمدة ليست قصيرة وغير معلومة؟

نفضت غطاء سريرها مسرعة، كالتى اتخذت قراراً مفاجئاً وجب تنفيذه حالاً.. دخلت إلى الجدة تخبرها دون تردد..

- أرسم وأتعلم الخياطة. وأخذ إجازة من المكتبة أو أستقيل.. موافقة؟

تظاهرت ندى بالتخفي وراء باب الغرفة كأنها تغلقه عليها، خاشية صوت الجدة العالي قبل أن ينهال عليها بالسباب كما تفعل أحياناً.. لكن ثرياً فاجأتها بردها بكل هدوء:

- «وليه لأ.. جربي».. من اليوم وصاعداً أنتِ مسئولة عن حياتك بكل اختياراتها، أعدك ألا أتدخل إلا حين تطلبين..

فرحت ندى بانسياق الجدة وراء قرارها، حتى أنها ظلت ترقص في الغرفة بحركات طفولية عبثية تشاور بيدها علامات النصر، قبل أن تسكتها الجدة بضربة وسادتها فجأة..

تحمست ندى لفكرة البدء من الجديد.. ذهبت إلى الجامعة وقدمت استقالتها، لم يكن لها فكرة الحصول على إجازة، فوجودها بنظام العقود السنوية لم يكن يضمن لها تلك الرفاهية، ولم تتردد في الرجوع عن قرارها،

أمام خسارة وظيفتها الى حيث لا تدري.. لديها من الخطط ما يكفيها لأن تبدأ بحماس وزهو بنفسها..

في المساء قابلت إيمان واتفقتا على تفاصيل مشروعهما الجديد.. وأخبرتها أنها ستتعلم الخياطة بالفعل مع ثريا، وستجربان الفكرة في قطعة أو اثنتين لتختبرا الأذواق بهما..

لم تكتف ندى بهذا المشروع الموصول بحبها القديم للرسم.. إنما أعادت فتح النوت الوردية.. تقرأ خواطرها عن كل من قابلتهم في تيندر.. وتفكر في البدء بمشروع كتابة حقيقي.. وصفحات الدفتر البيضاء التي أهدتها لها منار.. تنتظر منها ذلك.. وحسن أيضاً..

الرسالة الأخيرة: إلى حسن

حسن.. أعتقد أنك بخير.. إرسالك لي المفاجأة الأخيرة يعني لي أنك على قيد الحياة.. ووجود نص مسرحي مكتوب.. يعني أنك عاكف على أمر ما يشغلك بالقدر الذي لا أصدق في الحقيقة أنه يمنعك عن التواصل معي ثواني.. سطور مقتضبة حتى كعادتك أحياناً.. أطفأت بهجة ما فعلته بسكوتك واختفائك.. حتى حينما طلبت رؤيتك أو حضور مسرحيتك، تجاهلت الطلب.. توم هانكس في you've got mail لم يخطف عن ميغ راين بالمناسبة.. اختفى مؤقتاً لما عرف أنه الشخص الذي تكرهه، لكنه قابلها في نهاية الأمر، فماذا تظن نفسك أحسن منه مثلاً؟ على كل حال لم أعد في حاجة لانتظارك.. قررت من اليوم ألا أنتظر شيئاً، ولا أحداً.

صحيح، اليوم استقلت من وظيفتي كأمانة مكتبة.. اليوم ستقطع أخباري عنك.. حتى المكان الذي ظننته خيط دليلك بي.. سأقطعه، كما فعلت أنت.. ورغم غضبي الشديد منك.. فإنني أشكر معرفتي بك..

انتصرت لأحلامي في حضورك.. دلتني سطورك العابرة على أشياء لم أكن لأفكر فيها لولا تحدثنا.. سأتفرغ للكتابة، وسأملأ روعي بالرسم والألوان. ولن أنتظرك.. كنت حلماً وأن الألوان أن أستيقظ منه..»

أرسلت ندى رسالتها وحذفت كل الرسائل القديمة بينهما، حتى لا تجد بريده وتعاود فعلتها إن ساقها الشوق لذلك..

لكنها احتفظت بعناوين الكتب التي أرسلها لها، لتستعين بها في مشروعها الأدبي الجديد..

قسمت وقتها بين رسوماتها على القماش وبين الكتابة.. في الصبح ترسم وتجرب شغل الماكينة مع ثريا، وفي الليل تكتب ما يدور في بالها..

كانت تضع روحها في القطع التي ترسم، تستعيد ذكريات حلمها القديم، تتجاوز به مشاعر واهية من الوحدة، لم تعد تلحظ أن لديها وقتا للتفكير.. صار وقتها مزدحما بالورق والفرش ورائحة ألوان الزيت.. لم تكن تكتفي ندى بموهبتها ولا بالورش التي التحقت بها مؤخرًا.. كانت تتابع كل ما هو له علاقة بالرسم على الأقمشة من خلال اليوتيوب.. أحبت ندى رسم المساحات الخضراء.. كانت تعطيها إحساس البراح والحرية، وأحبت أيضًا رسم الوشوش، ترى فيهم انعكاس مشاعرهم، لكنها كانت تفضل السُمر فيهم والعيون العسلية.. مرة ترسم وجوها من جنوب إفريقيا تأتي بصورهم من جوجل، ومرة من أطفال أسوان والنوبة الساحرين، ومرة من طفلة تجلس إلى جوارها في المترو.. كأنها كانت تدلل سمرتها في ملامح هؤلاء..

وفي جلسة صفاء مع إيمان تتحدثان عن أشكال منتجاتهما وكيف ستكون، اقترحت إيمان من جمال رسومات ندى وهي التي سبقتها في الرسوم البدوية والمصرية القديمة على الفخار والزجاج والمجات، أن تقترح اسما للبراند، قالت ندى وهي تضحك:

- «أسمر اللون يا لالالي»..

ضحكت إيمان بصوت عال، فظنت ندى أنها تسخر منها طبعًا، وشاركتها الضحك أيضًا لأن الاسم فعلا غريب، لكن إيمان ردت تنفي الفكرة معلنة حماسها للاسم وأنه سيكون «تريندي جدًا» يترك بصمته سريعًا مع الناس..

لم تصدق ندى جدية إيمان في التنفيذ، إلا عندما أرسلت لها الاسم مرسوما على هاتفها بعد أيام.. فصدقت أخيرًا أن الكليات ليست وحدها موطن الأحلام، وأن بإمكانها الوصول طالما تسعى. فشكرت لإيمان أنها ألقت إليها من جديد حبل التمني..

وفي الوقت نفسه كانت تتعلم الخياطة مع ثريا في أبسط الموديلات جهدا كي تضمن جودتها وأنها لا تحتاج لبراءة فائقة.. فاختارت البدء بال«كيمونو».. ترسم هي وتتولى إيمان طباعتها على أقمشة ناعمة تظهر الرسمة بإتقان كما لو رسمتها ندى في الأصل على تلك القطعة... وتخييط ندى القماشة بعدها..

تعمدتا أن تجربا المشروع في عدد محدود من القطع.. سواء ملابس، أو شنط، أو أكسسوارات وفخارا.. وفي غضون أسبوعين، كانت إيمان قد بدأت في وضع المنتجات على صفحاتها المدشنة مسبقا لمشروعها الأقدم، لتختبر الذوق العام.. وفي ساعات قليلة، جاءت الرسائل تسأل عن أسعار المنتجات وأماكن الشحن المتاحة.. لم تصدق ندى نفسها وهي تسمع من إيمان ما ترويه..

حتى أن الجدة ترجمت الفرحة بطريقتها، فطبخت الرز بلبن ووزعته على الجيران، وهي تخبرهم بمشروع حفيدتها وتتباهى به أمامهم بل وتدعوهم لزيارة الصفحة..

النجاح يبقى نفسيتنا بخير. يلهيها عما أحزنها، يفتح شهيتنا للمزيد.. وهو ما شعرت به ندى بعدما أصبح لها «براندا» في أسابيع تحب اسمه «أسمر اللون يا لالالي» وتعلقه بخط يدها فوق مكتبها بغرفتها.. فقد كان أولى قطرات غيثها..

فشجعها نجاحها البسيط ذلك على استكمال مشروعها الأدبي غير المعلن. لم تكن تعلم له ملامح محددة. لكنها كانت تحكي على الورق عن شخصيات من لحم ودم قابلتهم هناك.. في عالم تخفى وراء كلمة «matching» بحثا عن شريك أو حبيب.. ولكي تكمل الصورة في بالها.. كانت تقرأ في صفحات كثيرة على فيس بوك عن نماذج تورطت في قصص مشابهة لقصصها، عند الكلمة نفسها.. وعند باب الحلم نفسه، الارتباط والزواج..

كانت تتعمد ألا تركز مع هاتفها كثيرًا عكس الأيام الماضية، لكنها لم تكن لتجاهل وجود اسمه على شاشته معلنا وجود بريد إلكتروني منه.. أبعد تلك المدة تذكرها؟! فقد مر شهر على آخر رسالة بينهما..

دخلت غرفتها لتنفرد برسالته دون أن تلاحظ الجدة ارتباكها..

الرسالة الحادية عشرة: من حسن

- «كيف حالك يا ندى.. أعرف أنه طال اختفائي وأنتِ مستاءة لذلك، لديك كل الحق لتغضبي مني.. لن أخبرك عن سفري إلى والدتي لمرضها وقضاء أغلب الوقت معها.. ولن أخبرك عن انشغالي بإنهاء المسرحية، لأنه كان يمكنني إرسال لك ولو رسالة أثناء تجهيزي لها.. ولا حتى سأتحجج بإنهاء الماجستير الذي لم أحك لك عنه مسبقًا، لآخذة اليوم مانعا عنك.. ولكنني ببساطة خفت عليك مني.. خفت تعلقك بوجودي.. خفت اعتمادك على خيال

مآة تركنين إليه في رسائل نصية غير منتظمة توقفين عليها قرارات مهمة بحياتك.. كما كان يحدث على «تندر».. أحببت فكرة أنك تُحلقين خارج حدود الشاشات والمحادثات، وتمنيت أن يزيد يقينك بأن قصتك الحقيقية خارجها.. كنت فرحًا بخطواتك التي تسلكينها مع نفسك وبنفسك.. ترددت بين رغبتني في أن تكلمي الطريق بمفردك، لتعلمي أنك فقط صاحبة الفضل في ذلك.. لا أحد غيرك يا ندى.. وبين أن أكمل كلامي معك لأنني أحب ذلك، وخوفا من أن تعودني إلى البرنامج! أبعدت نفسي عنك محبة لك، ولم أكن أدري أن اللعنة ستقلب علي وأفتقد وجودك ومشورتك وجدالك.. فكرت في أن يتجاوز اسمانا على نص مكتوب كاعتذار أتيق يليق بقلبك وتسامحين اختفائي.. ولأنك كنتِ تستحقين التجربة كونك موهوبة فعلا يا ندى..

لم أكتب لك الآن، لأنني تذكرتك اليوم مثلا، فلم أنسك أصلا.. ولكنني انتظرت الوقت الأنسب.. لاحتمال مفاجأة جديدة.. فأنا أبعث إليك رسالتي تلك. لتقبلي دعوتي لحضور المسرحية التي كتبتها معي.. على مسرح الهوساير السبت القادم، سيكون العرض الأول.. والمفاجأة هذا المرة أني سأشارك في أداء دور صغير بالعرض.. الساعة ٧ مساءً يا ندى.. أتمنى أن يفتح الستار وأنتِ في الصفوف الأولى أمامي، لا أخفيك سرا أشعر أنك صرتِ كل جمهوري ولا أعرف متى وأين.. مكانك سيكون فارغا في الصالة.. حجزت لك مقعدين لربما أحببت اصطحاب إحدى صديقاتك معك. اقتربت من الأربعين وقابلت عشرات النساء، ولم يستطع أحد أن يملأ ما تركته أنتِ من فراغ، تخيلي؟!

تسألين نفسك كيف سأعرفك ولم نتقابل يومًا؟ تعالي وستكتشفين بنفسك.. قد تكون هناك مفاجأة أخرى مثلا...

ندى سامحيني أرجوك.. سأكون في انتظارك، وأعدك هذه المرة لن تنتظريني مجدداً».

قرأت ندى رسالته وأطراف يدها ترتعش وتسري فيها برودة لا تعلم من أين جاءت، وكذلك جسمها كله كأن به حمى، تفرك يديها كي تهدأ، وتفكر فيما سيكون ردها.. همت لتمسك بهاتفها، لكنها ورغم كل ما شعرت به من مشاعر مختلطة، أحسبت بعدم رغبتها في الرد عليه هذه المرة، طالها إحساس استهانة بها، وأنه لربما أتقن الكذب عليها كما فعل غيره من الذين عرفتهم على البرنامج.. وبعد كل المرات التي انتظرت، عاندت لهفتها ورفضت الرد عليه!

ونفست عن غضبها في مكالمة مع منار:

- بعد شهر يا منار؟! من يظن نفسه ليتخيل أنني سأترك كل شيء من أجل رؤيته، ولا حتى لمتابعة عرض حضرة المؤلف الشاب الموهوب؟ من هو ليولي نفسه واصيا على تصرفاتي وأفكاري، فيقرر ويحكم بالنيابة عني؟ فيحدد متى يختفي ومتى يرد ومتى ينصح؟ من أخبره أنني كنت بحاجة له أو لغيره فقرر معاقبتي بحرمانني من طلته لأعتمد على نفسي؟ ماذا عرف عني يا منار لكي يتوهم أنني تعلقت به أصلا.. والدته، ورسالة ماجستير ودور في مسرحية.. ويخبرني بعمره لأول مرة في رسالة عابرة! وأن مكاني فارغ!

يخبرني بين السطور أنه افتقدني تخيلي؟! أمطلوب مني الرقص فرحًا الآن، أم أنتظر يوم انتهاء عرضه لربما يطلب يدي للزواج مثلاً؟!

لا، تمام حاضر حاضر سأهدأ يا منار لا تقلقي..

«لأ طبعاً.. مش هايشوفني ولو بيحلم، مش بمزاجه.»

تحدث ندى نفسها ألا تنساق وراء ضعفها أمام لهفتها في أن ترى حسن، ولا لمشاهدة المسرحية التي شهدت ميلاد أول أحلامها في الكتابة. للمرة الأولى تشعر أنها تستحق أن يُبذل من أجلها أي عناء ولو كان مقداره الإلحاح في الغفران.. قضت ليالي كثيرة تنتظره، ودوره الآن في تذوق وجع الانتظار..

لم تكن تدري أنه تعلق بها من قبلها، من اللحظة الأولى التي كان يراقب فيها انفعالات ملامحها في المكتبة، من وقت كان «غريب» فصار «حسن».

عادت لتلهي نفسها من جديد في مشروعها مع إيمان، وفي الكتابة أيضاً.. أصبح لديها نص ممسوك، وخيوط درامية محددة.. هكذا أخبرتها زهراء مشرفة الورشة التي غيرت فيها الكثير.. لم تشغل بالها بكيف ستنشرها، بقدر ما شغلها أن تصل فيها لنفسها، أخلصت الكتابة، فأخلص الوحي لها، فانسدلت الجمل من بين يديها كأنهار كانت هنا دوماً..

تضاعف العدد على صفحة إيمان بسبب التصميمات الجديدة، وتهافتت الطلبات في رسائل الصفحة، فزادت حماسة ندى لإنتاج المزيد، أما الجدة فكانت مع إصرارها على الخياطة بنفسها بقدر ما تسمح به صحتها، تعمل كمديرة تسويق عظيمة، بين الجيران وأصدقائهم، فلا تجد حرجاً في أن تمر على البيوت بنفسها، لتتفاخر بشغل حفيدتها، وتخبرهم بثقة اسم الصفحة التي كتبتها لها إيمان مسبقاً في ورقة لكي لا تنساها، تتحجج بشرب الشاي

معهم.. وتريهم ما جاءت من أجله.. ودلال الجدة على الجيران يكسب بلا شك.. وشطارة ندى أيضًا..

قررت ندى التفرغ للكتابة أكثر.. خصوصا بعدما أوكلت مهمة الخياطة إلى مصنع عرفته عن طريق إحدى الجيران.. ينفذ لها الموديلات أسرع من ماكينة ثريا «السينجر» القديمة، وبأعداد أكثر نسبيًا..

أما اسم البراند، فكانت محقة إيمان في التثبيت به، بعدما صار لافتا بالقدر الذي أثار إعجاب بعض الصحفيين، واختياره مادة خفيفة لبعض صحفهم، أو مواقعهم الإلكترونية.. «أسمر اللون يا لالاي، تصميمات تنتصر لأصحاب البشرة السمراء».

أكثر من تقرير صحفي أجرته ندى وإيمان عن مشروعهما الجديد وكيف فكرتا فيه.. والمفاجأة كانت في ظهورهما في أكثر من برنامج تتحدثان فيه عن حلمهما وأفكارهما وعمما تحلم به ندى في مجال التصميمات.. المجال الذي تفتحه للمرة الأولى في حياتها ويجلب لها كل هذا الخير، ولم تنس الإشارة أيضًا لحلم كتابها المؤجل.

لم تكن تتخيل ندى أنها تجلس الآن تتحدث عن أحلام تحققها بالفعل، وهي من شهور كان كل أحلامها أن تجد رجلا تحبه ويحبها..

ذلك الرجل الذي يراها بالصدفة وهو يشاهد التلفزيون فيلمح طيفها وسماها الذي أحب من الوهلة الأولى.. وطرحتها البيضاء التي تُظهر حُمره في وجنتيها عند ارتباكها.. حسن لم يصدق أنه يرى ندى أمامه بعد اختفائها الأخير المقصود.. ولم يصدق أيضًا حينما سمعها تتكلم عن كتابها..

فكما بحث عنها من شهور ليجد سبيلا إليها، اليوم يبحث عنها من جديد، ولكن من خلال البراند الذي تتحدث عنه بهذا الزهو الذي لطالما تمناه فيها..

ضحك حين سمع اسم البراند الخاص بها.. وتأكد أن ثمة قصة هنا على وشك الحدوث من جديد.

ولما زادت دائرة ندى ومعارفها، لم يكن مستحيلا أن تجد فيهم صديقا يوصل كتابها إلى ناشر مهتم بموضوعه عن أحلام البنات، خصوصا وأنها سعت في أكثر من طريق.. كجروب الورشة - مجتمعها الأقرب- ولم يكن غريبا أن يكون الإهداء في الكتاب لثريا..

«شكرا لكل المساحات الخضراء بيننا وأودية الحب والعطاء.. شكرا لأنك كنت بعد الأهل أهلا»..

وفي المرة الأولى التي أمسكت الكتاب بين يديها، ضمته إلى صدرها وظلت تشم فيه، لفرحة الوصول رائحة تطيب لها الروح.. تتحسس غلافه والاسم الذي اختارت «ماكينة سينجر» وترتعش أناملها وهي تفعل، لا تساعها الأرض بما رحبت، لا تصدق أنها وضعت مشاعرها وخوفها وأحلامها بين ضفتي كتاب سيطلع عليه غيرها، وربما سيتجاوزون به ما مرت هي به من كل المشاعر السلبية السابقة.. تتذكر كلام حسن لها مرة:

- «سيكون محبا لو لجأت للتخلي يا ندى بمحض رغبتك.. مهما كان ذلك صعبًا، عليك أن تمضي قدمًا، وإلا ستبقى عالقة في حزنك أينما كنت، أو حبيسة احتياج زائل، توقفي عن تدمير ما تبقى من قلبك بالتفكير، ستتنسجين عندما تستوعبين أن سعادتك تكمن في التخلي والاكتفاء، ستكونين وقتها بخير، وسيبقى حلمك قيد القدر، وإيمانك بأن الدعاء قد يغيره لما تحبين».

تخلت ندى عن انتظارها لحسن أو لغيره.. أدارت وجهها مؤقتًا عن حلمها بوجود ألفة رجل تسكن إليه، لكنها تمسكت بدعاءٍ خفي قد يحققه القدر لها في الأجل القريب..

وتركت نفسها تستمتع بما وصلت إليه وهي في عامها الخامس والثلاثين..

في بيت ثريا، كانت منار تحتفل بها على طريقتها، تورتة عليها غلاف الكتاب.. وميعاد رتبته لها في الغد يجتمعون فيه خارج البيت يحتفلون بأشياء كثيرة.. الكتاب على رأسها بلا شك... قالت لها بخفة:

- تأنقي أكثر من عادتك لربما أعددت لكِ حفل توقيع فريدا من نوعه في وجود قراء جدد؟

ضحكت ندى وهي ترد عليها:

- حفل توقيع وقراء جدد؟ أحلام عميقة جدًا لكتاب ييات معي في يومه الأول خارج المطبعة.. ولم يُوزع في المكتبات بعد؟!

- «وما له.. خيلنا نشوف».

في اليوم التالي.. تأنقت ندى للحفل الذي جهزته منار بكافيه تحبّانه في الزمالك، تخبرها أنها أعدت فيه مفاجأة لها، كل ما توقعته أنها ستدعو للحفل أصدقاء الورشة الجدد الذين صاروا ضيوفا مرحبًا بهم في بعض الخروجات.. وربما طبعًا إيمان شريكة النجاح.. والجدّة طبعًا على رأس الحاضرين.. كانت تطمئن لوجود منار في أي تفصيلة بحياتها، يسعدّها كونها ضلع السند في مثلثها الآمن بعد ثريا..

هكذا نالت رزقها في الدنيا على هيئة محبة اسمها منار..

كانت جميلة كعادتها الفترة الأخيرة تحب الاهتمام بنفسها، كل شيء كما توقعته كان حاضرًا.. صحاب ورشة الكتابة، والرسم أيضًا.. وبوستر طبعته منار عليه غلاف الكتاب وبالونات كثيرة تزين المكان، لكنها لم تتوقع اتفاق منار مع الدار أن تحصل على نسخ من الكتاب بشكل مبدئي قبل توزيعه على المكتبات، لتوقعها ندى هذا اليوم.. رصتهم منار على منضدة في مدخل المكان بالطريقة التي تراها في أغلب حفلات التوقيع وفي المكتبات.. بعد التحيات والسلامات والمباركات.. أجلستها منار تطلب منها التوقيع على أول نسخة لها.. وبينما تهاودها فعلتها، وتجلس وتكتب لها ممتنة لوجودها ولكل ما فعلته من أجلها.. تجد كتابا آخر يُفتح أمامها مكتوبًا في صفحته الأولى..

«غريبك قد صار حسنًا.. فسامحيه».

لم تفهم ما قرأته.. اعتذلت في جلستها فرأت أمامها شخصًا تعرفه جيدًا، لطالما تمعنت النظر فيه كثيرًا قبل ذلك.. تلعثمت وهي تنطق اسمه..

- غريب؟

- لأ.. حسن.

تمت.



كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 / 01001872290

وللاطلاع علي كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا
وأنشطة كتابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات
التواصل الاجتماعي التالية:



KayanPublishing